



مجموعة من الباحثين

دور القرآن الكريم في بناء نهضة الأمّة ووحدتها





دور القرآن الكريم في بناء
نهضة الأمة ووحدتها

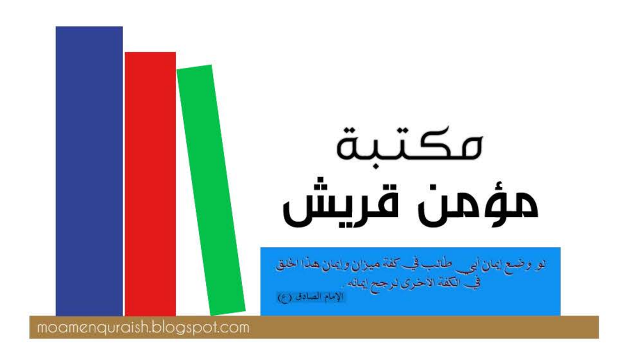

دور القرآن الكريم في بناء نهضة الأمة ووحدتها

مجموعة من الباحثين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-022-7

[١٤٣٦ هـ. - ٢٠١٥ م.]





دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah
العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣
Email: almaaref@shurouk.org - ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ :تلفاكس

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

كلمة المعهد

يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه): «إنّ القرآن ينبغي أن يكون محور اجتماع الأمّة الإسلاميّة وجميع الأمم الإسلاميّة. فلو أنّنا كأمّة إسلاميّة عظمى جعلنا من المفاهيم القرآنيّة وتعاليم القرآن محورًا لاجتماعنا لتغيّر وضع العالم ووضع الأمّة الإسلاميّة».

إنّ القرآن هو حبل الله المتين الذي يجمع تحت كنفه أمّة لا إله إلّا الله. وهو ذاك الوحي الذي وحَّد الأرض والسماء في مكنون دلالاته ومعانيه، وفتح صراط النهضة والتوحُّد أمام الذين تمسّكوا به حتّى كانوا الأمّة الشاهدة والرقيبة على كلّ الأمم.

هذا الكتاب هو نتاج عدد من مقالات مؤتمر أقامه معهد المعارف الحكميّة في شهر تشرين الأوّل عام ٢٠١٢م بحضور جمع من الباحثين من دول مختلفة تحت عنوان «دور **القرآن الكريم** في بناء نهضة الأمّة ووحدتها»، اختير منها ما يصلح ضمن سلسلة أدبيّات النهوض.

في المقالة الأولى، والتي تحمل عنوان «**القرآن الكريم** ودوره في نهضة الأمّة» للشيخ محمّد إبراهيم هلال من جمهوريّة مصر العربيّة، عرّف فيها الكاتب النهضة والعقائد السائدة في عالمنا المعاصر، وعرض دور **القرآن الكريم** في إرساء بعض من المنطلقات المهمّة التي تؤدّي إلى نهضة الأمّة.

بينما اعتبر الشيخ عبد القادر ترنني من لبنان في المقالة الثانية، «الخطاب النهضويّ في القرآن»، أنّ **القرآن** كتاب نهضة وتجديد، وأنّه وصيّة النبيّ وخلفائه. ثمّ انتقل إلى مفهوم التبليغ وآليّاته في عمليّة النهضة، والتحدّيات التي تواجهها. كذلك تحدّث عن أهميّة العلم في تفعيل حركة الخطاب النهضويّ، ووجوب اقترانه بالعمل، كذا الجهاد وخيارات حماية النهضة القرآنيّة.

كما عرّف الشيخ عبد الناصر الجبري من لبنان في مقالة «الوحدة الإسلاميّة في منطلقاتها القرآنيّة» التوحيد والوحدة، وأشار إلى حقيقة الوحدة، حيث نهى النبيّ (ص) عن الفرقة والتمزّق. وأنّ الدين الإسلاميّ دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد؛ فالعقل من أشدّ أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين، والقرآن الكريم شاهد على كلٍّ بعمله، قاضٍ عليه في صوابه وخطئه.

بينما تحدّث الدكتور نجيب نور الدين من لبنان في «القرآن في تجربة ثقافة الإسلام الحركيّ» عن حركيّة الثقافة القرآنيّة المستندة إلى الفهم القرآنيّ. وأنّ القرآن هو الركيزة الثقافيّة المرجعيّة للإسلام الحركيّ الذي جرى التعبير عنه في أدبيّات الحركات الإسلاميّة التي كانت في تعاملها مع الإسلام محكومة لظرفيّة المكان والزمان. ودعا إلى العودة للقرآن كمدخلٍ للخروج من الواقع المأساويّ الذي تعيشه الأمّة الإسلاميّة اليوم.

أمّا المقالة الأخيرة من الكتاب «مكانة القرآن الكريم في حركة الثورة ونظام الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران» للسيّد محمّد حسين رئيس زاده، المستشار الثقافيّ للجمهوريّة الإيرانيّة في لبنان، فقد أكّد فيها حضور القرآن الكريم في مجمل معارف الثورة الإسلاميّة ضمن محورين الاثنين: الأوّل هو دور القرآن في تأسيس الثورة ونظام الإسلام السياسيّ في إيران في مراحلها جميعًا، ابتداءً من التكوين والانتصار إلى الاستمرار. أمّا المحور الثاني، فهو كيفيّة تعامل الثورة مع القرآن بعد الانتصار.

بناءً عليه، يسعى هذا الكتاب ليسلّط الضوء على محوريّة القرآن في جمع شمل المسلمين واتّحادهم تحت راية واحدة جامعة. وقد سعيت جاهدة في عرض محتوى المقالات بإيجاز ضمن هذه المقدّمة المختصرة علّها تساعد القارئ الكريم في معرفة إجماليّة مختصرة لفحوى الكتاب

الذي نأمل أن يؤدّي الفائدة المرجوّة منه وأن ينال إعجاب القرّاء.

والله من وراء المقصد

سكينة بو حمدان

القرآن الكريم ودوره في نهضة الأمة

الشيخ محمد إبراهيم هلال
مدير عام في وزارة الأوقاف المصرية والأزهر الشريف ٢٠١٠ – ٢٠١٢

أُنزل القرآن تبيانًا لكلِّ شيء، وجعل فيه الشفاء من جميع الأسقام، والعلاج لكلِّ الأدواء، من عمل به واتبعه هُدِيَ إلى صراط مستقيم.

إنّ التربية التي حظي بها ذلك الجيل الأوّل كانت – بلا شكّ – العامل الأساسيّ الذي جعلهم يغيّرون مسار التاريخ، ويكتبون الأحداث من جديد، وبصورة مختلفة تمامًا عمّا عهده التاريخ وصانعوه. فقد صيغ التاريخ وفق منهج الحقّ، وطريق الإيمان، وقامت للعدل دولة بلغت المشارق والمغارب، لا فرق فيها بين غنيّ وفقير، ولا بين رفيع ووضيع؛ إلّا بالتقوى.

إنّ العالم الذي يعاني – في هذا الزمان – ما يعانيه من مصائب وويلات، وظلم واستبداد، وجوع وحرمان وغير ذلك محتاج أشدّ الاحتياج إلى مثل ذلك الجيل؛ ليصحّح المسيرة، ويردّ الناس إلى الجادّة، ويعيد الحقّ إلى نصابه، لعلّ البشريّة تسعد من جديد بما سعدت به أيّام كان للإسلام والمسلمين دورهم الفاعل في صياغة التاريخ، وصنع أحداثه.

والسؤال: هل يمكن أن نرى مثل ذلك الجيل من جديد؟ وما السبيل إلى ذلك؟

تمهيد

تعيش الأمّة الإسلاميّة منذ فترة طويلة في أسوأ أحوالها، فهي مشرذمة إلى بضع وخمسين دويلة، لكلٍّ منها نشيد وعلم، ووقعت تحت الاستعمار العسكريّ تارةً وتحت الاستعمار الاقتصاديّ والسياسيّ تارةً أخرى؛ حدود مصطنعة، فقر مدقع، بطالة متفشّية، سوء رعاية، تخبّط مريع يجتاح كلّ جنبات أمّتنا الإسلاميّة. وقد آلت حال الأمّة إلى هذه الحال بعدما كانت سيّدة العالم ومنارة العلم ووجهة العلماء، يحسب لها ألف حساب، يا ترى ما الذي حصل؟

إنّ الله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل مخاطبًا المؤمنين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ

آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، هذه حقيقة قرآنيّة في وصف الأمّة الإسلاميّة أقرّها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهذه الآية قطعيّة الثبوت، قطعيّة الدلالة تدلّل على عزّة الأمّة وسيادتها، إذًا ما الذي حلّ بهذه الأمّة ونحن نرى ما هي عليه اليوم؟

كيف ننهض؟

النهضة هي انتقال فردٍ أو شعبٍ أو أمّةٍ من حالٍ إلى حالٍ أفضل منه، والنهضة هي الارتفاع الفكريّ في حياة الإنسان. فهي ليست ارتفاعًا اقتصاديًّا ولا روحيًّا، ولا حتّى أخلاقيًّا، وإنّما هي الارتقاء بالفكر ليس غير.

ولا يمكن أن تتحقّق النهضة إلّا بمبدإ يقوم على عقيدة ينبثق منها نظام يبيّن الأساس الفكريّ في حياة الناس؛ والذي يحدّد معنى وجود الإنسان في هذه الحياة.

وعليه، فالارتفاع أو الرقيّ الاقتصاديّ والسياسيّ والاجتماعيّ أساسه الفكر الكلّيّ عن الكون والإنسان والحياة، وهو ما يعرف بـ «العقيدة» التي هي القاعدة الفكريّة الأساسيّة لكلّ الأفكار والمفاهيم، وهي القيادة الفكريّة التي يُقاد بها المجتمع ويُسيَّر حسبها. فمن امتلك القواعد والمقاييس امتلك التفكير المنتج والعقل المبدع، وأمّا من فقدها فقد الإنتاج والإبداع، نقول فقد الإنتاج والإبداع ولا نقول فقد التفكير، لأنّ الإنسان بطبعه مفكّر إلّا أنّ فكره قد يتميّز بالسطحيّة، أو العمق أو الاستنارة.

إذًا، العقيدة بمفهومها الشامل هي الفكرة الكلّيّة عن الإنسان والكون والحياة «الوجود»، ممّا قبل الحياة وعمّا بعدها، وعن علاقتها جميعها بما قبلها وبما بعدها. فإن صحّت صحّت الأنظمة المنبثقة منها. وبالتالي، يكون

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

أساس الأنظمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها صحيحًا، وتبني هذه الأنظمة الصحيحة القوّة الماديّة والعسكريّة على أساسٍ قويم.

وإذا كانت العقيدة غير ذلك، فإنّ من المحتّم إنتاج أنظمة غير صحيحة، وتبنّي القوّة الماديّة والعسكريّة على أساس غير سليم، والأفكار في أيّ أمّة هي أهمّ ثروة تنالها هذه الأمّة، وهي أعظم هبة يتسلّمها الجيل من الأمّة السابقة إذا كانت عريقةً في الفكر المستنير. ومن هنا، يتوجّب الحرص على الأفكار أوّلًا وأخيرًا، فعلى أساس هذه الأفكار، وحسب طريقة التفكير المنتجة تكتسب الثروة المادّيّة، ويُتوصّل إلى المكتشفات والاختراعات الصناعيّة وما شاكلها، فارتفاع الأمم اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا لا يتأتّى إلّا من خلال ما تحمله من عقيدة؛ أي الفكرة الكلّيّة عن الكون والإنسان والحياة، وقد حلّ **القرآن الكريم** المعجز هذه المسائل عند الإنسان، وأوجد العقيدة التي تعطيه الفكرة الكلّيّة عن هذه الأشياء، فالكون كلّه مخلوق لخالق، خلقه الله لأمرين اثنين: أوّلهما ليدلّ هذا الكون عليه سبحانه، وثانيهما لعبادته، فوجب على الناس الاستدلال بمخلوقات الله على وجوده - البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على المسير - وذلك كما أدركها الأعرابي قديمًا، والاستدلال بالآيات التي جاء بها أنبياء الله ورسله على صدقهم، ومن ثمّ فيما أمروا به من عبادة الله كما وجب عليهم حمده. وهذا أصل الديانات كلّها الذي جاء به أنبياء الله ورسله حتّى محمّد خاتم الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢].

والعقائد الموجودة في عالمنا المعاصر اليوم ثلاث عقائد تشكّل ثلاثة مبادئ:

---

(٢) سورة **الشورى**، الآية ١٣.

١. العقيدة الأولى: هي العقيدة الاشتراكيّة ومنها المبدأ الاشتراكيّ وهي حسب زعمهم: «لا إله والحياة مادّة» وهي عقيدة باطلة بدون شكّ لأنّها لا تقنع العقل، ولا توافق الفطرة، وقد انهار مبدؤها بحمد الله ومنّته لبطلانه، وبالتالي، كلّ النظم الاشتراكيّة من سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة فاسدة لأنّها منبثقة عن أساس باطل. فأصحاب المبدإ الاشتراكيّ أرادوا النهوض والارتفاع على أساس مبدئهم ونهضوا، ولكن بنهضة غير صحيحة لأنّ مبدأهم غير صحيح لقيامه على أساس باطل، ولقد انهار المبدأ ودولته لا لسوء تطبيق المبدإ ولكنّهم كانوا كلّما ازدادوا تطبيقًا له كانت نهايتهم تقترب، لأنّه مبدأ يخالف فطرة الإنسان كإنسان كما يخالف الواقع.

٢. العقيدة الثانية: هي العقيدة الرأسماليّة أو العلمانيّة وهي «فصل الدين عن الحياة» وهي عقيدة باطلة أيضًا لأنّها غير صحيحة، لا تقنع العقل ولا توافق الفطرة، وهذا المبدأ في طريقه للانهيار والاندثار إن شاء الله، فقد ظهر للجميع فساد حضارته، وأصحاب المبدإ الرأسماليّ أرادوا النهوض والارتفاع على أساس مبدئهم وكان لهم من الأنظمة الحياتيّة المختلفة، ولكنّهم نهضوا على أساس باطل، وبالتالي تكون نهضتهم غير صحيحة برغم ما حقّقوه من تقدّم مادّيّ كما المبدأ الاشتراكيّ الذي انقرض، وبقيت أسلحته التدميريّة عالةً على دوله.

٣. العقيدة الثالثة: هي العقيدة الإسلاميّة ومنها المبدأ الإسلاميّ، وهي تقوم على أساس أنّه «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله»، وقد أعطت فكرًا كليًّا أساسيًّا شاملًا عن كلّ الأشياء المدركة المحسوسة وتتمثّل في الكون والإنسان والحياة بأنّها محدودة ومحتاجة، أي إنّها مخلوقة لخالق خلقها جميعها، وهو الله سبحانه وتعالى، وإنّه وراء الكون والإنسان والحياة، وإنّ الحياة الدنيا مخلوقة، وإنّ بعدها

الموت والحساب على اتّباع هدي الخالق أو مخالفته، وحمل رسالة الإسلام العظيم، وإنّ الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل بهذا الهدى، وإنّ سيّدنا محمّد، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، قد أرسله الله خاتمًا للرسل برسالة الإسلام بشيرًا ونذيرًا للعالمين، وإنّ الله سبحانه وتعالى يحاسِب على أساس هذه الرسالة العظيمة.

وهي عقيدة صحيحة تقنع العقل وتوافق فطرة الإنسان فهي من خالق الكون والإنسان والحياة، ولذلك نهض المسلمون نهضة صحيحة على أساس المبدإ الإسلاميّ لا على أيّ أساس آخر، ثمّ تقدّموا في العلوم العسكريّة والمادّيّة، فكانت كلّ علومهم التجريبيّة وقوّتهم مبنيةً على أساس مبدإ صحيح يحقّق الخير في الدنيا والخير في الآخرة، فأجدادنا لم يبدأوا بصناعة الأسلحة ولا باستيراد القوانين والمقاييس من الفرس أو من الروم ولا بتجميل المباني، وإنّما بدأوا من الأساس وهو العقيدة، أي النظرة للكون والإنسان والحياة حسب ما يذكرها القرآن الكريم.

فالنهضة إذًا تكون على أساس مبدإ، والنهضة الصحيحة تكون على أساس المبدإ الإسلاميّ، أي إنّ النهضة تكوّن الارتفاع الفكريّ، ولكي تكون نهضةً صحيحةً يجب أن يكون هذا الارتفاع الفكريّ على أساس روحيّ، أي أن تكون هذه العقيدة وما ينبثق عنها – أي هذا المبدأ – مصدره الوحي. ولذلك إذا أراد المسلمون النهوض مرّةً أخرى بعد انهيار الدولة الإسلاميّة التي كانت تحمل وترعى المبدأ الذي ما يزال حيًّا في نفوس المسلمين المخلصين، فعليهم أن ينهضوا على أساس المبدإ الإسلاميّ لا كما يظنّ البعض.

و لا بدّ أن ينشأ المبدأ في ذهن شخص ما، إمّا بوحي من الله وأمره بتبليغه، وإمّا بعبقريّة تنبثق عن هذا الشخص؛ أمّا المبدأ الذي ينشأ في ذهن إنسان بوحي من الله فهو المبدأ الصحيح، لأنّه من خالق هذا الكون والإنسان والحياة، وهو الله سبحانه وتعالى، فهو مبدأ قطعيّ الصحّة لا

محالة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٣].

أمّا المبدأ الذي ينشأ عن تفتّق في ذهن الإنسان بعبقريّة، فإنّه باطل؛ لأنّه نتج عن عقل محدود يعجز عن الإحاطة بهذا الوجود، لذا كان هذا المبدأ باطلًا في عقيدته ونظامه، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤].

وقد أوضح الإسلام أنّ وراء هذا الوجود خالقًا خلقه هو الله سبحانه وتعالى، والإيمان بالله يجب أن يقترن به الإيمان بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ورسالته، وبأنّ **القرآن الكريم** كلام الله، كتاب الله، فيجب الإيمان بكلّ ما جاء به هذا الكتاب، ولهذا كانت العقيدة الإسلاميّة تقضي بأنّه يوجد قبل الحياة ما يجب الإيمان به وهو الله سبحانه وتعالى، وتقضي بما هو بعد هذه الحياة، وهو يوم القيامة.

وحتّى تكون العقيدة الإسلاميّة قاعدةً فكريّةً لمفاهيم الإنسان، وحتّى يسير سلوكه حسب أوامر الله ونواهيه، جعل سبحانه الشريعة الإسلاميّة شريعةً شاملةً لكلّ نواحي الحياة، تنظّم سلوك الإنسان كلّه، وتعالج ما يعرض له من مشاكل وتنظّم جميع أفعاله، فأعطت حكمًا شرعيًّا لكلّ فعل من أفعال العباد من حيث الوجوب والتحريم والندب والكراهيّة والإباحة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٥]. ومن كلّ هذه الأحكام الشرعيّة تكوّنت أنظمة الحياة، فإضافةً لأحكام العبادات والأخلاق والمطعومات والملبوسات شرّع الإسلام لنا أنظمةً للحياة والمجتمع والدولة بما فيها سياسة الدولة الداخليّة من نظام للحكم والاقتصاد والاجتماع والتعليم، وكذلك سياستها الخارجيّة

---

(٣) سورة **الملك**، الآية ١٤.

(٤) سورة **الأعراف**، الآية ٣.

(٥) سورة **النحل**، الآية ٨٩.

من أحكام الجهاد والمعاهدات والحروب والسلم وغيرها حيث قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[6].

وتركيزًا لما سبق، فإنّ الإنسان ينهض بما لديه من فكر عن الحياة والكون والإنسان، وعن علاقتها جميعها بما قبل الحياة الدنيا وبما بعدها؛ لأنّ الفكر هو الذي يوجد المفاهيم عن الأشياء ويركّز هذه المفاهيم، وعند إرادتنا أن نغيّر سلوك الإنسان المنخفض، ونجعله سلوكًا راقيًا لا بدّ من أن نغيّر مفاهيمه أوّلًا. فلا سبيل للمسلمين اليوم – إن أرادوا النهضة والقيام من جديد – إلّا باعتماد العقيدة الإسلاميّة كقاعدة فكريّة ينشئون عليها صرحهم الفكريّ الحضاريّ النهضويّ من جديد.

لذا، فإنّ الإنسان بقدر التزامه بشرع الله وانضباط سلوكه بالنظام الربّانيّ يحقّق لنفسه السعادة، ومن هنا ندرك أنّ المفهوم الصحيح للسعادة هو نيل رضوان الله بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، وأنّ التعاسة كلّ التعاسة هي في البعد عن التشريع الإلهيّ إذ إنّ نفس الإنسان لن تستقرّ وقلبه لن يطمئن دون استشعار رضوان الله تعالى.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[7] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[8]، كما يقول أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[9] وكذلك يقول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[10] ويقول سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا

---

(٦) سورة **المائدة**، الآية ٣.

(٧) سورة **المائدة**، الآية ١٥.

(٨) سورة **النحل**، الآية ٩٧.

(٩) سورة **الأحقاف**، الآية ١٣.

(١٠) سورة **البقرة**، من الآية ٣٨.

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[11].

القرآن الكريم ودوره في نهضة الأمّة

لن يجد الباحث والقارئ عناءً كبيرًا إذا أراد أن يبيّن أثر القرآن في نهوض الأمّة، إذ يكفي ليدرك المنصف – أيًّا كان دينه – أن ينظر في أحوال العرب قبل نزول هذا الوحي على قلب نبيّنا محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ لينظر مرّةً أخرى في أحوالهم بعد مضيّ أقلّ من ربع قرن فقط، وكم هو الفرق العظيم ما بين أداء الإتاوات من قبل سادات العرب إلى أكاسرة الفرس وقياصرة الروم وبين موقف ربعي بن عامر بن رستم حين دخل عليه مبيّنًا حقيقة دعوة أهل الإسلام، ولا عجب! فالقرآن نفخ فيهم تلك الروح.

وكم هو الفرق بين تلك الأمّة التي انتقلت من رعي الغنم إلى قيادة الأمم، وما كان السبب إلّا هذا القرآن بلا ريب، فالصدر الأوّل من هذه الأمّة لم يكن صالحًا بالجبلّة والطبع، فالرعيل الأوّل منهم – وهم الصحابة – كانوا في جاهليّة جهلاء كبقيّة العرب، وقد أصلحهم القرآن لمّا استمسكوا بعروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكّموه في أنفسهم، وجعلوه ميزانًا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكيّة، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادةً في غير جبريّة، قادةً في غير عنف.

وفي المقابل، فليتأمّل المنصف حال الأمّة حين هجرت هذا القرآن: تلاوةً، وتدبّرًا، وعملًا، وتحاكمًا، كيف انحدرت في مهاوي الذلّ، ودركات الهوان! ولن يجد الإنسان صعوبةً في البرهنة على ذلك، بل يكفي أن يحيل إلى واقع العالم الإسلاميّ اليوم: اجتماعيًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا، ليرى نتاج بعدها عن مصدر عزّها الذي نصّ القرآن عليه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

---

(11) سورة طه، من الآية 123.

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[12].

ومن هنا،كان لزامًا على العلماء أن يسعوا إلى بيان أثر هذا الموضوع بشتّى أنواع البيان: القوليّ والعمليّ، وما يندرج تحت هذه من الوسائل، صورًا لا تكاد تحصى.

ولعلّ هذا البحث يساهم في التنبيه على بعض هذه الوسائل في بيان أثر القرآن في نهوض الأمّة، من التركيز على بيان الوسائل والطرق التي يتمكّن بها المسلمون – إذا أرادوا – من النهوض بالأمّة انطلاقًا من بوابة العزّ والشرف الأولى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[13]. وإنّها لتبعة ضخمة تُسأل عنها الأمّة الّتي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشريّة الشاردة، إذا هي تخلّت عن الأمانة: ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾.

فمن لم يتّضح له هذا المعنى، فليقرأ إذًا: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[14]. وليقرأ: ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[15]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وَإِنّ من المؤلم أن يسمع الإنسان من بعض المنتسبين إلى هذه الأمّة مَن يزهد في نصوص الوحي – قرآنًا وسنةً – بل ويصرّح بعضهم بكلمات خطيرة الدلالة والمآل تدور على أنّ زمنيّة الوحي، وصلاحيّته محدودة بزمن معيّن، أو ظرف معيّن، بل – وهذا هو الكفر الصريح – من يرى أنّ سبب تخلّف الأمّة هو تمسّكها بهذا القرآن، فأنّى لهؤلاء أن يستضيئوا بنور الوحي؟! ويزداد الألم ممزوجًا بالفرح حينما يسمع في مقابل هؤلاء، من مفكّرين مستقلّين من الغرب والشرق ممّن أسلموا بسبب قناعتهم بصدق

(١٢) سورة **الزخرف**، الآية ٤٤.

(١٣) سورة **الزخرف**، الآية ٤٤.

(١٤) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٢.

(١٥) سورة **إبراهيم**، الآية ١.

ما جاء به هذا القرآن.

يقول المفكّر الفرنسي فنساي مونتاي: «إنّ مثل الفكر العربيّ الإسلاميّ المبعد عن تأثير القرآن، كمثل رجلٍ أفرغ من دمه!»، ونصوص مفكّري الغرب في هذا الباب أكثر من أن تحصر!

لذلك يعتبر **القرآن الكريم** أحد أركان الإيمان بالله عزّ وجل، وإيماننا بالقرآن الكريم أنّه من عند الله أي كلام الله يدفعنا دفعًا للقيام بكلّ ما جاء فيه جملةً وتفصيلًا، ومن المنطلقات المهمّة التي تؤدّي إلى نهضة الأمّة والتي عمل القرآن على إرسائها تتمركز في النقاط التالية:

١. تطبيق شرع الله سبحانه وتعالى على جميع البشر لأنّ رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم التي جاءت بهذا الشرع رسالة عالميّة، ورحمة للناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١٦]، وحتّى يستقيم أمر الناس على النهج الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وكذلك لأنّ الحكم بغير ما أنزل الله يوجب سخطه وعدم رضاه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١٨]، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١٩]، كما نفى الله سبحانه وتعالى صفة الإيمان عن الذين لا يحكّمون شرع الله بينهم فقال سبحانه: ﴿فَلَا

(١٦) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.

(١٧) سورة **المائدة**، الآية ٤٨.

(١٨) سورة **المائدة**، الآية ٤٥.

(١٩) سورة **المائدة**، الآية ٤٧.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[20]، وبتطبيق حكم الله في الأرض يسود الخير والرخاء والأمن والاستقرار.

2. حمل الدعوة الإسلاميّة فرضٌ على كلّ مسلم، فالإسلام هي الرسالة التي كلّف الله سبحانه وتعالى بتبليغها ونشرها بين الناس، يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[21]، وكذلك يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[22]، ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[23] كما يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لئن يهدي الله على يديك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعيم»[24]، وحمل الدعوة الإسلاميّة يجب أن يكون من أجل غاية واضحة محدّدة وهي بناء الأمّة وإنهاضها[25] وفق منهاج الله سبحانه وتعالى.

3. إبطال العقائد الباطلة المتواجدة في المجتمع، والإتيان بالبديل عنها من المبدإ الإسلاميّ، وبنظرة متفحّصة للقرآن الكريم نراه تعامل مع فئات الكفر الموجودة جملةً وتفصيلًا، فتعامل مع كلّ فئة بما تدّعي، وبما تؤمن وتعتقد، فكانت تتنزّل الآيات الكريمة

---

(20) سورة **النساء**، الآية 65.

(21) سورة يوسف، الآية 108.

(22) سورة **النحل**، الآية 125.

(23) سورة **فصّلت**، الآية 33.

(24) الأصبهاني، **حلية الأولياء**، الجزء 1، الصفحة 62. وعن: البخاري، **صحيح البخاري**، الجزء 10، الصفحة 198، و**صحيح مسلم**، الجزء 12، الصفحة 132.

(25) حافظ صالح، **النهضة** (دار النهضة الإسلاميّة، الطبعة 2)، الصفحة 146.

لتثبت بطلان معتقدات الكافرين بالدليل والبرهان، فخاطبت مشركي العرب، فهاجمت عبادة الأصنام والأوثان هجومًا عنيفًا لا هوادة فيه، فبيّنت تفاهتهم وعدم استخدامهم لعقولهم ليروا أنّ أصنامهم ما هي إلّا حجارة لا تضرّ ولا تنفع ولا تسمن ولا تغني من جوع، حتّى أنّ الآيات وصفت الكفّار بالأنعام حيث يقول المولى عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٢٦].

٤. إزالة كلّ الأفعال والتصرّفات البالية التي ينظّم الناس بها علاقتهم، فها هو **القرآن الكريم** يهاجم الأفعال السيّئة القبيحة السائدة فيقول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٢٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي تتعرّض للأفعال والتصرّفات التي تسود في المجتمع، والتي يجب التطرّق لها، وكشف فسادها وعدم المداهنة في وصفها، وإبراز سوئها دون خوف أو وجل.

٥. يؤكّد **القرآن الكريم** على أنّ القوة والشدّة وعجائب الأحوال المادّية المدنيّة لا تجدي نفعًا إن لم تكن تحقّق الغاية من خلق الإنسان وهي عبادة الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٢٨].

من هنا، يتأكّد أنّه لا مجال للشكّ أنّ النهضة الصحيحة ليست الرقيّ

---

(٢٦) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

(٢٧) سورة **المطففين**، الآيات ١ إلى ٣.

(٢٨) سورة **الحجر**، الآيات ٨٠ إلى ٨٤.

المادّيّ من بنايات وعمارات وأبراج ولا بالرقيّ العلميّ والإلكترونيّ إلى غير ذلك من أنواع المظاهر، ولكنّه الرقيّ الفكريّ على أساس روحيّ، أي يجب أن تكون النهضة أساسًا مبدأ يكون من عالِم خبير بأحوال العباد ألا وهو الله جلّ وعلا الذي أنزل المبدأ الملائم لعباده، والذي أصلحهم وأنهضهم في بداية الدعوة، وعلى مدى ثلاثة عشر قرنًا، ولن ينهضهم ويصلحهم سواه في هذا الزمان ألا وهو المبدأ الإسلاميّ.

خلاصة

في ضوء ما توصّل إليه البحث، فإنّه لكي تنهض الأمّة الإسلاميّة لا بدّ لها من أن تجعل:

١. التفكير المستنير سلاحها؛ به تنهض وتزدهر وتنشط، وبدونه تتخلّف وتنحطّ وتخبو، وإنّما بقاء الأمم بدوام شعلة الفكر فيها.
٢. المبدأ الإسلاميّ هو الينبوع الصافي، والمبدأ الوحيد الصحيح الذي يجب أن تسقي وتشرب منه، و**القرآن الكريم** هو المصدر التشريعيّ الأوّل، وكذلك السنّة النبويّة حيث يقول المصطفى صلّى عليه وسلّم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله...»[٢٩]، فلتعضض الأمّة عليهما بالنواجذ، ولا تحدّ عنهما قيد أنملة مهما كانت الأسباب، لأنّ فيهما حياتها.
٣. العودة إلى حكم الإسلام وجعله أساسًا فكريًّا للنهضة، فبه نهض العرب في الماضي، وبدونه تخلّف المسلمون في الحاضر.
٤. استئناف الحياة الإسلاميّة عن طريق إقامة الدولة الإسلاميّة، وهي الكيان التنفيذيّ الذي يجعل الإسلام منهاج حياة، فلا يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلُح به أوّلها.

---

(٢٩) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، الجزء ٢١، الصفحة ٤٠٥.

٥. كلّ الأفكار والمعتقدات والقوانين التي توجد في المجتمع، والتي تتناقض مع المبدإ الإسلاميّ كفكرة وطريقة، منبوذة وفاسدة وباطلة، ويجب العمل على اجتثاثها من جذورها.

٦. الوعد الربّاني وبشرى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بالتمكين في الأرض والنهوض والرقيّ لمن يعبد الله حقّ عبادته ويطبّق شرعه، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٣٠].

(٣٠) سورة **النور**، الآية ٥٥.

الخطاب النهوضي في القرآن

الشيخ عبد القادر ترنني
رئيس جمعية الأثر الطيب في لبنان

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

بما أنّ **القرآن الكريم** كتاب منزل من عند الله تعالى الحكم العدل الخبير، فإنّه بلا شكّ كتاب هداية يرشد إلى أقوم سبيل وخير طريق ترافق نهضة الأمم والشعوب وتقودهم إلى برّ الأمان وساحة السعادة والاطمئنان. لكنّ النهضة التي تُستَلهم من كتاب الله تعالى تعوزنا لجملة من الأمور التي يجب أن تكون محقّقة فينا حتّى نكون قادرين على الاستفادة من هذه النهضة المنصوص عليها في كتاب الله تعالى عبر المفاهيم التي ترشد إليها السور والآيات.

ولعلّ أوّل ما تحتاجه الأمّة الإسلاميّة على طريق النهضة أن تتعرّف إلى طبيعة الخطاب الإلهيّ لتتمكّن من التعامل معه مستفيدةً من أبعاده وإرشاداته، من هنا جاء نداء الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

فالقرآن الكريم كتاب حياة من لدن الحيّ القيّوم، وخطاب الله تعالى خطاب حياة، والأمّة متى استجابت لله ولرسوله دخلت الحياة من أبوابها الصحيحة، وحقّقت كلّ معاني النهضة التي لا تمتّ إلى الزيف بصلة في أصغر جزئيّاتها كما في أعظمها، ولقد توصّل العلماء والباحثون في أرجاء العالم على اختلاف دياناتهم إلى الاعتراف والإقرار بحقائق كان كتاب الله قد أثبتها من قبل تقدّم العلوم وتطوّرها، سواءً أكان ذلك في علوم الطبّ، أو الفلك، أو الأحكام الشرعيّة التي دعا إليها الإسلام والتي تدخل في باب

(١) سورة **الإسراء**، الآيتان ٩ و١٠.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٢٤.

الإعجاز القرآنيّ، وهي مسطورة في كتب باتت اليوم لا تعدّ ولا تحصى.

ومن منطلق قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٣] سنلقي بعضَ الأضواء على موضوع الخطاب النهضويّ في القرآن الكريم، وذلك من خلال الزوايا البسيطة المختصرة، والتي تتيحها لنا طبيعة البحث على أن تكون نقاطًا هي موضع حاجة ماسّة نستفيد منها اليوم على أرض الواقع في ظلّ الخلافات والنزاعات الراهنة.

القرآن الكريم كتاب نهضة وتجديد

لعلّ من أوسع العناوين التي يمكن الحديث عنها والكتابة فيها، النهضة في **القرآن**، ونهضة الأمّة في **القرآن**، والخطاب النهضويّ في **القرآن**. ومردّ ذلك، أنّ **القرآن** بحدّ ذاته كتاب نهضة انبعثت في أمّة عاشت حياة الجاهليّة والعصبيّة؛ انبعث فيها الأمل، ونفثت فيها روح الحياة بعدما شارفت على الهلاك والاندثار تحت أقدام القوى المستكبرة والأمم المستعمرة التي استعبدتها ردحًا من الزمن، واتّخذت من زعمائها وملوكها حرسًا وشرطًا يحمون مصالحها مضحّين في سبيل ذلك بالأمّة ووجودها.

والناظر في **القرآن**، نظرة عابرة، يعجب بأدقّ تفاصيل الحياة التي عُني بها كتاب الله تعالى عقيدةً وتشريعًا وأخلاقًا، ثمّ إذا هو أعمل عقله فيه ازداد إعجابًا لإدراكه أبعاد الوجود والحياة والإنسان في **القرآن الكريم**. ثمّ إذا ما تأمّل وتعمّق ووقف عند آياته مطلقًا العنان للفكر والبحث والتدبّر؛ أيقن أنّ هذا الكتاب يستحقّ أن تصرف الأعمار في خدمة تبيان مقاصده وأبعاده التي لا تبلى، لا بل تتجدّد كلّما تجدّدت الحياة، لتفتح آفاقًا رائدةً للعقل تجعله يقرّ بأنّه مضمحلّ ومتلاش أمام هذه المعجزة التي غطّت مساحة الوجود بكلّ أبعاده الزمانيّة والمكانيّة الممكنة المتوقّعة وغير المتوقّعة،

---

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٢٤.

المنظورة وغير المنظورة، المشاهدة وغير المشاهدة.

فالجانب الإعجازيّ وحده يحتاج إلى موسوعات تعالج موضوعات بسيطة سطّرها **القرآن** لمن يهتمّون بالشأن العلميّ، وأظهر لمن يعتدّون بالعلم والعلوم أنّ الإيمان و**القرآن** مفتاح عظيم يلجون به أبواب المعرفة والإعجاز ليعرفوا عظمة الخطاب وعظمة المخاطِب.

القرآن الكريم كتاب نور وحكمة لا ينضب معينها، وينبوع علم تتفتّق مناهله؛ كلّما فتق الإنسان بابًا من أبواب البحث انفتحت أمامه أبوابٌ شتّى تضيء دروبه وتهدي حيرته وتلين قسوته وتمحو جبروته وتوقظ فطرته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿الر * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٤]. ويقول في آية أخرى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥]. كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٦].

فتدبّر القرآن، والتفكّر بآياته، وإعمال العقل في استجلاء غوامضه، وتفهّم لغته العربيّة التي تفتح العقول المغلقة؛ كلّ ذلك ما هو سوى نورٌ على نور يجلو ظلمات الدروب الموحشة المظلمة ويضيء ساحات الحياة وعيًا وإقدامًا وتجديدًا وحضارةً.

أمّا النبيّ الأعظم، صلّى الله عليه وآله، فيقول: «أُنزلت عليّ توراة محدثة فيها نور الحكمة، وينابيع العلم ليفتح بها أعينًا عميًا وقلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا»[٧].

فالقرآن كتاب هداية وتدبّر، من شأنه أن يرسم معالم طريق النهضة في كلّ أمّة من الأمم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ونهضة الأمم لا

---

(٤) سورة **إبراهيم**، الآية ١.

(٥) سورة **ص**، الآية ٢٩.

(٦) سورة **يوسف**، الآية ٢.

(٧) جلال الدين السيوطي، **مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا**، تحقيق الشيخ سمير القاضي (مؤسّسة الكتب الثقافيّة، دار الجنان للنشر والتوزيع، الطبعة١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الصفحة ١١٨.

تكون البتّة ما لم تتعلّم البشريّة ممّن سبقها من الأمم الخالية، لتستفيد من واقع السابقين، وتجد لها مُعينًا على تخطّي كلّ المراحل المستعصية بسبب الظروف المانعة والحاجبة عن أنوار الله تعالى؛ مَنْ خطّ للخلق طرق الهداية والنور الموصلة إلى مرضاته ونعيمه وكرامته، وهذه مجتمعةً تبعث على التقدّم والنهضة وتوفّر أهمّ الأجواء الملائمة لذلك. **فالقرآن** كتاب تجديد، جدّد للأمم طريقها، وهو الكتاب الذي يتجدّد على مرّ العصور والدهور ليلائم المراحل كلّها، ويواكب الحضارات برمّتها، ويكون هو المنقذ الأسمى من كلّ تخلّف وانحطاط وتقهقر.

القرآن وصيّة النبيّ وخلفائه

لقد عمل النبيّ الأعظم، صلّى الله عليه وآله، جاهدًا من أجل نشر القرآن، ضحّى بكلّ غالٍ ونفيس، ولم يتوانَ لحظةً عن تبليغ أمر الله تعالى إذ أمره بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٨) فصدع بما أمر وأعرض عن الشرك وأهله، ونجّاه الله تعالى من خططهم وأحقادهم، ثمّ أخرجه من بينهم ليحقّق معنى الصدع والجهر بالحقّ رغم تزاحم القوى المعاندة وتجمّعها ضدّ الخطاب الذي ينهض بها من اللاوعي إلى الوعي، ومن الضياع إلى الوجود، ومن الجحود إلى الإيمان.

ثمّ لمّا أسلم الروح إلى بارئها، وأسند المهام إلى وارثه المحمّديّ الأوّل الإمام عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، الذي غيّبته الظروف عن مكانه الطبيعيّ والشرعيّ، كان أوّل عمل قام به العناية بكتاب الله تعالى ترتيبًا وتنظيمًا وتفسيرًا، حتّى قدّم هذه العناية على الخروج إلى الناس والصلاة معهم.

فعن محمّد بن سيرين قال: نبّئت أنّ عليًّا، عليه السلام، أبطأ عن بيعة أبي بكر، فلقيه أبو بكر فقال: أكرهت إمارتي؟ قال: "لا، ولكن آليت بيمين

---

(٨) سورة **الحجر**، الآيتان ٩٤ و٩٥.

أن لا أرتدي برداء إلى الصلاة حتّى أجمع القرآن". قال: فزعموا أنّه كتبه على تنزيله. قال محمّد بن سيرين: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم. قال ابن عون: فسألت عكرمة عن ذلك الكتاب فلم يعرفه[٩].

هذه الحادثة تظهر لنا بشكل واضح أنّ الإمام ومن بعده وارثيه المحمّديّين قد وجّهوا كلّ عنايتهم إلى كتاب الله تعالى لأنّه هو دستور الإسلام الحقّ الذي لا يفسد مهما فسد الناس، ولا ينحرف أو يحرّف مهما جهد المدّعون على تغيير مفاهيمه وتحريف توجيهاته وتعاليمه، ثمّ كيف لا يوجّهون عنايتهم إليه ومن عرفه عرفهم، بل من وافقه وافقهم، ومن التزم به التزم هديهم وسننهم المعصومة؟

كيف لا والقرآن والعترة لا ينفصلان حتّى يردا على النبيّ الحوض يوم القيامة؟ كيف لا، والنبيّ قد قالها كلمةً باقيةً أبد الدهر: «كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ، فَأَجَبْتُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[١٠]. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ عترة النبيّ الأطهار هم أولى وخير من يتقدّم هذه الغمار، إذ إنّ تقدّمهم عن سابق علم موروث عن حضرة النبيّ العظيم، صلّى الله عليه وآله، الموحى إليه من عند حضرة الربّ تعالى.

لقد كان الإمام واضحًا في تقديم الأولويّات المتعلّقة بمصير الأمّة وتقدّمها وصالحها ونهضتها عبر الأزمنة والعصور. لذا، فإنّ إبعاده عن القيام بمهام الإمارة لا يقدّم ولا يؤخّر في طبيعة المهام المنوطة به كخليفة راشد مهديّ ووارث نبويّ معصوم، لا بل يحتّم عليه العناية بأصل الديانة وجوهر الشريعة وروحها، ألا وهو القرآن: حبل الله المتين الذي، متى عرفه

(٩) المتّقي الهندي، **كنز العمّال**، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حيّاني (بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، الجزء ٢، الصفحة ٥٨٨.

(١٠) النسائي، **السنن الكبرى**، تحقيق دكتور عبد الغفّار سليمان البنداري وسيّد كسروي حسن (بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، الجزء ٥، الصفحة ١٣٠.

المسلم والمؤمن والمجتمع والأمّة كان هو المنجاة من كلّ ما يعترض سبيل التقدّم والنهضة التي لا يقوم لها أسسٌ إلّا بالفهم الدقيق والتأمّل الدائم العميق؛ وهذا المنهج هو إرثٌ نبويٌّ عهد به النبيّ الأعظم إلى وارثه عهدًا مبينًا؛ فعَن الْحَارِث الأعور

قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ؟ قَالَ: أَوَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم يَقُولُ: أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، فَقُلْتُ: ما الْمَخْرَجُ منها يَا رسول الله؟

قَالَ: كِتَابُ الله: فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ يعصمه؟ الله، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وهو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. مَن اعْتَصَمَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ تَرَكَهُ هَلَكَ قَوْلٌ فَصْلٌ وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ (لَا تَخْتَلِفُهُ الْأَلْسُنُ)، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَه الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[11]. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ[12].

هو الكتاب العزيز الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد﴾[13]، وهو الشفاء النافع، ولقد صدق النبيّ، صلّى الله عليه وآله، فيما أخبر وحدّث به الناس إذ وقعت الفتن وبلغت مبلغها، ولا تزال

---

(١١) سورة **الجن**، الآيتان ١ و٢.

(١٢) الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق وتصحيح : عبد الرحمن محمد عثمان (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة ٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م)، الجزء ٤، الصفحتان ٢٤٥ و٢٤٦.

(١٣) سورة **فصّلت**، الآية ٤٢.

الأمّة الإسلاميّة إلى هذه الأيّام تعيش مراحل متقدّمة منها هي أسوأ وأشدّ وأدهى وأمرّ من سابقاتها التي كانت سببًا في تفرّق المسلمين وتمزّقهم واندثار آثار النهضة العظيمة التي بثّها فيهم كتاب الله تعالى، لقد ابتغت الأمّة الهداية في غيره فضلّت وأضلّت، أرادت النور من غيره فلم تستمدّ غير الكراهية والتقهقر والتراجع والظلمة والانحطاط. كيف لا وقد تركت كتاب نهضة ربّانيّة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حكمت بغيره فانحطّت، وسلكت سبيل غيره فانحرفت عن كلّ طريق يودي بها إلى التقدّم والنهضة؟!

ولطالما وجّه الإمام الناس إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى لأنّه علم أنّ الأمّة تاركة كتاب ربّها، مولّية له ظهرها، باحثة عن منهج تستمدّه من غيره، وطريق تستلهمه من سواه، وحضارة تأخذها من منكريه، ونهضة تبنيها على أنقاض تعاليمه التي مهما ظنّ الظانّون أنّها صارت فناءً انبعثت قويّةً ضاربةً بسياط أنوارها ظلمات الجهل والغباء والكفر والنفاق.

وقال، عليه السلام، في إحدى خطبه:

واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى؛ واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء: وهو الكفر والنفاق والغي والضلال؛ فاسألوا الله به، وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجّه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنّه شافع مشفَّع، وقائل مصدَّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومن مَحَلَ به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم... وإنّ الله سبحانه لم يعظ أحدًا بمثل هذا القرآن فإنّه

حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره مع أنّه قد ذهب المتذكّرون[١٤].

بعض ملامح الخطاب النهضويّ في القرآن

أ. اقتفاء طريق الأنبياء قادة الأمم في عمليّة التغيير

ما من آية في كتاب الله إلّا وهي تحمل في أعماقها خطّة نهضة وحضارة وتقدّم، وإنّ إمعان النظر في معين الآيات القرآنيّة التي كان فيها خطاب الله تعالى موجّهًا إلى رسله الذين هم قادة الإنسانيّة على طريق الحقّ والهداية ليدفعنا إلى أن نتفهّم طبيعة خطاب الله تعالى الموجّه إلى رسله الكرام، لنقتفي أثر القادة المصلحين الحقيقيّين عبر الصورة الكاملة المنتشرة في رحاب الكتاب المبين. ومن هذه الخطط المستلهمة من خطاب الله تعالى الموجّه إلى أنبيائه قوله سبحانه: ﴿يا أيّها الرسل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١٥]. هذه الآية دعوة من قبل الله تعالى إلى كافّة رسله كي يبتغوا الحلال ويكتفوا به، ويعرضوا عمّا سواه، إضافةً إلى المسارعة بالعمل الصالح حيث يكونون به قدوة الناس ودليلهم إلى الله تعالى.

ولعلّ هذه الآية تعتبر من أهمّ معالم السير على طريق الحقّ وخطى الرسل، فإذا كان المعصومون من قبل الله تعالى تتنزّل عليهم أوامر الله لتذكّرهم بطبيعة الخطّ الإلهيّ الذي اختيروا له، فكيف بمن اختاروا نهج الأنبياء دعاةً ومصلحين ومرشدين، إنّ عليهم إلّا أن يتوخّوا الحلال الصافي الذي لا يدنّس قلوبهم ولا نفوسهم ولا أرواحهم ليبقوا في تألّق تامّ يكسبهم القبول عند الله وعند الناس، وليستمع الخلق إلى أحاديثهم وليقبلوا فكرهم عن قناعة ومحبّة ورضا.

---

(١٤) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح وتحقيق الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ. ش)، الجزء ٢، الصفحة ٩٢.

(١٥) سورة **المؤمنون**، الآية ٥١.

ولقد كان طريق الأنبياء محفوفًا بالمخاطر والمصاعب والمتاعب والمشاقّ التي لم تزدهم إلّا عزمًا وإصرارًا، حيث تخطّوا أصعب المراحل بزاد الصبر والتوكّل الذي أمروا بالتزوّد به، حيث قال تعالى، مخاطبًا نبيّه الأعظم، صلّى الله عليه وآله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١٦). فالأنبياء، وأولو العزم على وجه الخصوص، كانوا أكثر الناس صبرًا؛ أمّا خاتمهم فكان مأمورًا بصبرهم جميعًا ليحقّق أهداف الرسالة التي بعث بها مهما استخفّ به الذين لا يقيمون للرسالة وزنًا بجهلهم واستعلائهم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾(١٧)؛ أي لا يحملنّك الذين لا يوقنون على الاستخفاف بالاختيار الذي وقع عليك من قبل الله تعالى إذ جعلك أنت النبيّ المرسل من بينهم؛ وكلّهم لا ينبغي إلّا أن يكونوا أتباعًا لرسالتك ودعوتك.

هذه النماذج من الخطابات القرآنيّة تنهض بالدعاة إلى مستوًى راقٍ من الصبر الذي يجب أن يتحلّوا به من أجل تحقيق رسالة النبيّ الذي به آمنوا والذي كان النموذج العملانيّ الذي نقتفيه في حركة الدعوة والنهضة.

التبليغ وآليّاته في عمليّة النهضة

وإذا انتقلنا إلى خطاب الأنبياء، كلٌّ على حدة، تعلّمنا من كلّ خطاب نهضة على طريق وعينا، هذه النهضة ستكون الكاشف عن معالم تخلّفنا لتنهج بنا السبيل القويم، ومن أعظم هذه الآيات التي نستدلّ بها على عظيم شأن دعوة الإسلام وبالغ النهضة التي تقود إليها في **القرآن الكريم** قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ

(١٦) سورة **الأحقاف**، الآية ٣٥.

(١٧) سورة **الروم**، الآية ٦٠.

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[18].

فالتبليغ أساس من أسس التعريف بالدّين فكرًا ومنهجًا وعلمًا وعملًا. والأمر، هذا، ينبّه إلى أهمّيّة الدعوة التي يتحمّلها أتباع الرسل، عليهم السلام، إذ العلماء هم ورثة الأنبياء بما يحملون من علوم النبوّة. وهو يحتاج في كلّ عصر وزمان إلى آليّة تتماشى وطبيعة العصر الذي يعيش فيه أتباع الرسالة المحمّديّة؛ هذه الآليّة التي يجب أن يبذل الدعاة والمصلحون في سبيلها كلّ غالٍ ونفيس لأنّها المساعد الأوّل لهم على طريق نهضتهم بالأمّة، فما وسائل الإعلام والقنوات الفضائيّة اليوم إلّا وسيلة من أهمّ الوسائل التي يمكن أن تنقل الإسلام للناس وتعرّضه بصورة صحيحة مشرقة توحّد جهود المصلحين من أبناء الأمّة على اختلاف مذاهبهم وتوجّهاتهم، وتقدّم الإسلام القادر على حلّ جميع المشكلات وإزالة كلّ العقبات عبر إحياء شعائره وتفسير تشريعاته، التي أثبت التاريخ أنّ نهضات العالم المتقدّم بأسرها كانت ولا تزال بأمسّ الحاجة إلى الاهتداء بأنواره التي تشرق نهضةً على العالمين، وها هو العالم المتقدّم اليوم يستفيق على قرع طبول نهاية الدول العظمى بسبب تفشي النظام الربويّ الذي وضعه اليهود ليستولوا على مقدّرات العالم.

هذه الوسيلة الإعلاميّة التبليغيّة اليوم تستخدم آلة تجييش وتفريق وتعصّب لتُظهر الإسلام بصورة متخلّفة يتبرّأ منها العقلاء، ويقف في وجه حركتها الحكماء.

التحدّيات على طريق نهضة الأنبياء

ثمّ إذا نحن تتبّعنا توجيه الله تعالى نبيّه وتثبيته حضرتَه، صلّى الله عليه

---

(١٨) سورة المائدة، الآية ٦٧.

وآله وسلّم، عرفنا واجبنا تجاه إحياء القرآن نهضةً وفكرًا وأسسًا وتطبيقًا، لأنّ المقصود بالخطاب والمعنيّ به بعد الحبيب الأعظم هو أمّته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٩].

هذا الخطاب الإلهيّ يكشف عن الطبائع التي ستتحدّى نهضة الأمّة وستقف سدًّا منيعًا في وجهها في كلّ زمان ومكان، كما تقدّم الأدوية الناجعة في عمليّة المواجهة، مواجهة حركة النفاق الذي يعلن الإيمان ويبطن العداء وهدم كلّ مَعلم من معالم النهضة القرآنيّة، ومواجهة الحركات الدينيّة المنحرفة عن الهدي الإلهيّ، والتي بدّلت تشريعات الله وزيّفت أصولها وخانت مطالبها.

وبالانتقال من خطاب سيّد الأنبياء إلى خطاب غيره من الأنبياء والمرسلين، نعرف أصول هذا الخطّ ومنهاجه وفروعه، نعرف كيف نقيم حكم الله وأمره على الأرض، إذ استخلفنا فيها لنكون حجّة على الأمم بالحقّ والعدل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢٠].

هذا، وقد جاء الخطاب القرآنيّ يحثّ الأنبياء العظام على المحافظة على طبيعة المهام المنوطة بهم ليقيموا خلافة الله تعالى على أرضه وفق

---

(١٩) سورة المائدة، الآية ٤١.

(٢٠) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

شريعته وأحكامه، قال تعالى: ﴿يا داود إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢١].

كما يرشدنا القرآن عبر خطاب الله أنبياءه إلى ضرورة التمسّك بالكتاب المنزّل بكلّ ما أوتينا من قوّة وعزم بحيث يكون لنا الملهم والنور والدليل قال سبحانه: ﴿يا يحيى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٢٢]. فالكتاب وأحكامه وتشريعاته وإقامة حدوده في الأرض تحتاج إلى قوّة، قوّة في الأخذ، وقوّةً في العمل، وقوّةً في المواجهة، وقوّةً في سدّ الثغرات التي يمكن أن ينفذ عبرها العدوّ إلى تغيير فكرنا ووعينا ونهضتنا ليغرقنا في وحول التخلّف والنزاعات والصراعات القاضية على وجودنا، وقوّة في ساحات الجهاد الإعلاميّة والفكريّة والعلميّة والقتاليّة التي يسعى أعداؤنا إلى تلويثها وتشويه معالمها.

ب. عدم الاستهانة بالتاريخ والتراث الإسلاميّ

إنّ التراث الإسلاميّ تراث نابض بالمعرفة والحياة والحركة، لذا، فإنّ المذاهب لا تحدّه، والعقول لا تقيّده، والأفكار لا تكبّله، فهو تراث أصيل يضمّ النصوص المعصومة الصحيحة التي متى اجتمع المسلمون عليها تفتّحت أمامهم آفاق العلم والعمل، والحضارة والأمل، ودانت لهم الأمم قاطبةً.

ولقد عاب الله تعالى على اليهود والنصارى استهانة كلّ منهما بما أنزل الله تعالى واعتبار الآخر ضالًّا ليس عنده من الحقيقة شيء، ولا من الخيريّة شيء مع أنّ الكتب التي معهم كلّها في الأصل من عند الله تعالى.

هذا النكران قاد كلّ فريق لأن ينكر ما عند الآخر. وبالتالي، حملهم على الكفر بما أنزل الله تعالى على أنبيائه ورسله بغيًا وعدوانًا، كلّ ذلك عصبيّةً

(٢١) سورة ص، الآية ٢٦.

(٢٢) سورة مريم، الآية ١٢.

وجهلًا وانتصارًا للنفس وليس لله ولا لأنبيائه، وفي هؤلاء الأقوام الذين نسبوا إلى الكتب السماويّة والرسل ومن تبعهم الجهل وعدم المعرفة وعدم الإيمان حتّى جعلوهم تابعين للاشيء من العقلانيّة والفهم والإدراك، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢٣].

وإنّني من هذا المنطلق، أرى أنّ المسلم - سنيًّا كان أم شيعيًّا - الذي ينكر ما عند أخيه يرتكب أشنع ممّا فعل اليهود والنصارى من أتباع الكتب السماويّة، إذ أنكر أحدهم ما عند الآخر، مع العلم بأنّ ما عندهما من الشرائع، وإن كان مختلفًا، فقد أنزل على أنبياء متعاقبين ينتمون إلى شجرة واحدة من الأنبياء، أنبياء بني إسرائيل من نسل نبيّ الله يعقوب، عليه السلام.

أمّا السنّة والشيعة، فعندما ينكر أحدهم ما عند صاحبه إنكارًا مطلقًا ضاربًا به عرض الحائط مشنّعًا مقلّلًا من قيمته مسيئًا هازئًا، فإنّه بذلك ينكر **القرآن** الذي يجمعهم، والكتاب الواحد الذي به آمنوا، والنبيّ الخاتم الذي يعظّمونه، والعقيدة الواحدة التي يؤمنون بها، والإسلام الواحد الذي يدّعون الإيمان به ويدعون إليه. فهل اعتمد المسلمون، على اختلاف مذاهبهم، على **القرآن الكريم** والسنّة النبويّة بمصادرها المتعدّدة والمتنوّعة؟ لماذا لا أقدّم فائدةً من هذا التنوّع - إذا كنت مسلمًا حقيقةً - بحيث أقارن بين هذه النصوص عارضًا إيّاها على كتاب الله تعالى، لنقبل ما وافق الكتاب ولنترك ما لم يوافقه؟

ينتمي تراث المسلمين وكتبهم جميعًا إلى كتاب واحد هو **القرآن الكريم**، وهو الكتاب الذي يعوّل عليه في قبول النصوص المنقولة وردّها من قِبل انتماء جامع الروايات والنصوص أو المحلّل لها والمفسّر لغوامضها إلى مذهب

---

(٢٣) سورة **البقرة**، الآية ١١٣.

من المذاهب الإسلاميّة، فإذا تعاملنا مع التراث الإسلاميّ بناءً على هذه القاعدة لم يضرّ الأمّةَ الإسلاميّةَ اسمُ المذهب الذي جعله العلماء حاجزًا ومانعًا يحرِّم عليهم التعامل معه أو قراءته بحجّة الاختلاف. وإنّما سيكون تعدّد المذاهب الإسلاميّة مصدر غنىً لهذه الأمّة متى تعاملت مع هذا الكمّ الكبير من التراث على أنّه تراثها الذي يجب الإفادة منه، والاستعانة به على المعضلات التي تواجهها، وهو بالتالي مصدر وعي واجتهاد، إذ يحمي رجل العِلم من التقيّد بحدود وهميّة وبأطر عقليّة وضعها المجتهدون أمثاله من العلماء الذين سبقوه حتّى صبغت قواعد هؤلاء العلماء السابقين بصبغة القداسة والعصمة من حيث لا نرى ولا نشعر ولا نفكّر ولا نعمل عقلًا ولا نؤمن بضرورة الاجتهاد بزيادة أو تحليل أو إعادة نظر فيما سطّروه، في الوقت الذي ترانا لا نتعامل بمثل هذه القداسة مع النصّ القرآنيّ الذي يجب أن يكون له الحيّز الأكبر والسلطة الكبرى على أفئدتنا وفكرنا لنتمكّن من استنباط المعايير التي تعيننا على تغيير واقعنا بفهمنا حقيقة النصّ المقدّس ومراميه.

لقد بات المسلمون اليوم - وللأسف - ملتزمين بالمذهب الذي يُعتبر في الأصل طريقًا إلى فهم الكتاب الكريم وخطابه النهضويّ المتجدّد عبر الأزمنة والأمكنة، أصبحوا ملتزمين بقواعد العلماء الذين سطّروا فهمهم الذي وصلوا إليه في العصور القديمة والأزمنة الخوالي، ملتزمين بالأحكام التي استنبطها السابقون من كتاب الله حسب واقعهم وأوضاعهم الحياتيّة السابقة، وبالكتب والشروحات التي درسوها، ملتزمين بكلّ ما يُعقل وما لا يُعقل إلّا بالعودة إلى الأصل وهو كتاب الله تعالى القائل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢٤]، ولذلك صار همّ كلّ واحد أن يقول: ليس الآخر على شيء.. تمامًا كما أخبر الله تعالى عن اليهود والنصارى!

(٢٤) سورة **الأنعام**، الآيتان ١٦٢ و ١٦٣.

ولأجل هذا المعنى، حدّث النبيّ الأكرم، صلّى الله عليه وآله وسلّم، عن المرحلة التي ستكون بعده والتي سيسمع فيها المرء ما هبّ ودبّ من أحاديث تنسب إليه وهو منها براء، تُصحّح وهو منها براء، يُبنى عليها قواعد وأحكام وهو منها براء. عن ثوبان أنّ رسول الله، صلّى الله عليه وآله وسلّم، قَالَ: «ألا إنَّ رَحَى الإسْلام دَائِرَةٌ. قَالَ: فَكَيْفَ نَصْنَعُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: اعْرِضُوا حَدِيثِي عَلَى الْكِتَاب، فَمَا وَافَقَهُ فَهُوَ مِنّي، وَأَنَا قُلْتُهُ»[٢٥]. ودارت رحى الإسلام ولا تزال دائرة، والمسلمون لا يستفيدون من بعضهم، ولا يتعاملون مع التراث الذي بين أيديهم بناءً على القاعدة النبويّة التي أرشد الناس إليها، بل بناءً على ما قرّره علماء الجرح والتعديل الذين تأثّروا بالمناهج الموضوعة من لدن العصر الأمويّ الذي قطّع أوصال الروايات، وحذف ما لا يتناسب وحكمه القائم على القتل والإرهاب والحرب على الله ورسوله، متجلببًا بجلباب الدين والإيمان.

وتتابعت ظروف مشابهة حملت الكثير من العلماء على ردّ تراث بعض من الأحاديث النبويّة العريقة، ذلك لأنّ جامعها انتمى إلى فكر أو مذهب إسلاميّ محظور لدى السلطات الحاكمة.

يعتبر تراث الإسلام وحدة متكاملة يجب ألّا نهمل أيّ جانب من جوانبها، فهي محلّ خطاب الله تعالى القائد إلى نهضتنا متى عرفناه وعقلناه وعملنا به. فإذا وعينا الخطاب القرآنيّ نهضنا لأنّنا نحمل القرآن كدستور متجدّد يواكب دورة الكون المتجدّدة والمتحرّكة، ويحارب الجمود العقليّ والفكريّ والعصبيّ المصنوع في دوائر الحكم المنصرم الذي اتّخذ الإسلام سترة لحكمه. وإذا نهضنا تجاوزنا الأوهام والجهل والعصبيّة الضاربة في جذور عقليّتنا المنغلقة على ما تلقّيناه في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومساجدنا.

---

(٢٥) الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق وتخريج حمدي عبد المجيد السلفي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة ٢ منقّحة، لا تاريخ)، الجزء ٢، الصفحة ٩٨.

ج . من خطوات تفعيل الخطاب النهضويّ في القرآن وحدة المسلمين

إنّ وحدة المسلمين والصفّ الإسلاميّ في وجه التحدّيات الراهنة والمستقبليّة تكون من خلال دراسة واعية متأنّية للآيات التي خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين مبيّنًا عظيم أهمّيّة التفاف المسلمين حول بعضهم، ونتائج هذا الالتفاف في الانتصار على الأعداء والجهالة والأهواء والعصبيّات، ولا يكون ذلك بغير إرادة المحبّة الصادقة لله تعالى، وبالمعرفة الحقّة للنبيّ المتبوع: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢٦).

فكيف نكون أمّة، اتّباعًا وإجابةً، ونحن نقرأ آيات الله تعالى ثمّ نُعرض عن العمل بما أمرت به، ونبتعد عن معالم الطريق الذي خطّته؟

تتحمّل أمّة الإسلام أعباء الدعوة والنهضة بالإنسان في رحاب الحياة. هي أمّةٌ واحدةٌ لا تختلف ولا تتنازع، وإذا ما حلّ نزاع أو خلاف، فإنّ الحكم في ذلك هو كتاب الله تعالى ورسوله الأمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(٢٧)، والمدقّق في آيات القرآن وخطاب الله جلّ وعلا ينجلي له أنّ الملتزم بهذا المبدإ النهضويّ هو مؤمن حقًّا، إذ التزامه دليل على الإيمان، ويفهم من ذلك أنّ الذي يتخلّى عن خطاب الله ويتّبع خطاب النفس والشيطان والهوى والمجرمين والعملاء ليس بمؤمن لأنّه لم يردّ الخلاف إلى القرآن الذي فيه الشفاء والدواء لكلّ نزاع ممكن أن ينزل بساحة الأمّة المسلمة.

ومن أجل التأكيد على وجوب وحدة الأمّة التي تكفل لها البقاء على خطّ النهضة والتقدّم، ربط الخطاب القرآنيّ الفكر الوحدويّ للأمّة بالتقوى التي

---

(٢٦) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢٧) سورة النساء، الآية ٥٩.

هي المحصّلة التي يسعى إليها الأخيار من الناس الذين يتابعون الخطاب القرآنيّ مستفيدين منه في عمليّة الإصلاح والنهضة؛ التقوى التي يكون العمل بدونها هباءً منثورًا، كما أخبرنا القرآن في هذا الصدد عن أسباب تراجع الأمم وتخلّفها عن دروب الرقيّ فقال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢٨].

وقال في سورة أخرى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[٢٩].

لقد جعل الخلاف قوّة السابقين ضعفًا، قطّعوا أوصال المودّة فيما بينهم حتّى صاروا أحزابًا وشيعًا وطوائف. كلٌّ يفرح بما عنده وليس بما جاء به محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من عند الله جلّ جلاله، حتّى استحالوا مطمعًا للأعداء وهدفًا للكافرين والله يحاسب الكلّ على ما فرّط بعقاب ويسأله عمّا ضيّع.

وكما جاء الخطاب القرآنيّ بأخبار السابقين، ذكّر الأمّة التي استجابت لدعوة الإسلام بسابق أمرها، إذ عاشت حياة القتل والسفك والعداوة والدمار والثأر، إلى أن جاء الإسلام بخطاب نهض بهم من درك العداوات إلى ذروة المحبّة، ومن وديان التقهقر إلى قمم التقدّم، ومن الجفوة والقسوة إلى التعاطف والتراحم، كلّ ذلك لم يكن لولا اعتصام صادق بأبعاد الخطاب الذي أحيا بينهم الألفة والمحبّة ليصبح المتعاديان أخوين، والمتنازعان شقيقين، والكافران مؤمنين، ليفوزوا في الدنيا بنهضة ترفع من شأنهم بين الأمم، وليفوزوا يوم القيامة بدلًا من الجنّة بجنّتين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

(٢٨) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٥٢ و ٥٣.

(٢٩) سورة **الأنبياء**، الآيتان ٩٢ و ٩٣.

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٣٠].

كما تعتبر الوحدة في الخطاب القرآنيّ سبيلًا لمن يبتغي السير على طريق الهداية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وهي سبيل التقوى لمن أراد أن يحيا حياة الإيمان ويختم الله تعالى عمره بشهادة الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٣١].

وبعد المعرفة بعواقب التزام طريق الوحدة أو الفرقة، لا بدّ من التأكيد على أنّ الفرقة ليست من طبيعة الخطّ الإيمانيّ والخطاب القرآنيّ، وأنّ الدافع الأكبر والمستفيد الأوحد من الفرقة والانقسام هو عدوّ المسلمين الذي أوقد نار الأحقاد والثارات بين الأوس والخزرج، وها هو اليوم يوقدها بين السنّة والشيعة مستفيدًا من أشباه العلماء الذين يتغذّون على الفطريّات ونتن الأحقاد الذي يستلهمونه من بني صهيون، أكبر قوّة مادّيّة معادية للإسلام والمسلمين في العالم، وإذا أرادت الأمّة معرفة حقيقة هؤلاء المشعوذين الذين يرتدون ثياب الدعاة، وما هم سوى دهاة، فما عليها إلّا استجلاء أبعاد الخطاب القرآنيّ ومفاهيمه وأحكامه وتوجيهاته بطريقة واعية تواكب حركة التقدّم وعجلة الحياة السريعة..

العلم وأهمّيته في تفعيل حركة الخطاب النهضويّ في القرآن

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣٢].

إنّها أولى الكلمات المنزلة على قلب النبيّ الأعظم وروحه وكيانه والتي تبرز الخطوة الأولى على طريق المعرفة الموجّهة إلى النهضة والعلم والثورة على الجهل، وإذا كان النبيّ الخاتم مأمورًا بأن يقرأ باسم الله فكيف

---

(٣٠) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٠٢ و١٠٣.

(٣١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٢.

(٣٢) سورة **العلق**، الآيات ١ إلى ٥.

نستفيد من الخطاب القرآنيّ ونحن نقرأ بأسماء كثيرة غير أسماء الله تعالى الحسنى والتي لا ترشدنا إلى كلّ خير وحسن.

اقرأ باسم ربّك وعلى اسم ربّك، وبقدرة ربّك، وبعون ربّك، وبعطاء ربّك. فكلّ قراءة لا تقرأ باسم الله الذي خلق كلّ الموجودات بحيث يكون الله الأوّل والآخر إيمانًا واعتقادًا يتغلغل في نفس القارئ، فإنّ القراءة لن تكون كلّ نتائجها مجدية، لأنّ القارئ عندها سيستفيد من حيث يرى بصره القاصر وإرادته المحدودة ومصلحته الفرديّة. أمّا من يقرأ باسم الله، فإنّ قراءته ستكون باسم الله القادر، مريد الخير لعباده كلّهم على حدّ سواء. وإنّ هذا الكون صفحة من صفحات مخلوقات الله تعالى، وقراءة هذه الصفحة المبدَعة من لدنه لا تقرأ إلّا باقتفاء القواعد الكونيّة التي أرساها، ومن يخرج عن هذه القاعدة وعليها خرج عن الجادة ووقع في هاوية الانحراف والضياع.

ولقد أولى القرآن الكريم العلم أهمّيّة عظيمة لما له من تأثير على حياة الأمّة وحركة تقدّمها، فالأمّة التي لا يقرأ فيها الأخ أخاه من قبل أن يقرأ الآخرين لا يستطيع انتهاج أسباب الحضارة والرقيّ، إذ إنّ عجزه عن قراءة أخيه يعني عجزه عن قراءة ذاته ومراجعته نفسه، ومن كان دأبه كذلك كان إلى العجز أقرب، وعلى خطى التخلّف يزحف بل يهرول ويركض. والجهل من أعتى الأوبئة التي يمكن أن تصيب جسد الأمّة فتنخره نخرًا وتفتّه فتًّا وتسحقه سحقًا ولا تُبقي لوجوده مَعْلَمًا مُتَّبَعًا، ولا يختلف المستقرئ لدورة الحياة وحركة التاريخ أنّ هلاك معظم الأمم وتقهقرها كان مبعثه وبداياته عدم قراءة أبناء الفكر الواحد بعضهم بعضًا، وانقضاض بعضهم على بعض، وتجرّؤ الأدنى على الأرفع والأجهل على الأعلم، وهكذا دواليك، وعندما ذكر القرآن العلماء ودرجتهم عند الله تعالى ورفيع مكانتهم وقدرهم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٣٣].

ثمّ عندما أراد تبيان المَكانة الطبيعيّة التي يجب أن يحظى بها أهل المعرفة والفكر والعلم بين الناس قال: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[٣٤]، فبهذا الخطاب غير المباشر والاستفهام الإنكاريّ وظّف القرآن إحساس القارئ المؤمن المتابع لهدي الله ورسله، لحمله بطريقة غير مباشرة على الإجابة عن هذا السؤال باللاشعور لأن يقول بلسان حاله وقال: لا يستوون يا ربّي لا يستوون.

ولمّا أراد توجيه الخلق للجوء إلى أهل المعرفة في كلّ القضايا التي تعترض سبيل حركتهم ونهضتهم ومعرفتهم قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٣٥].

وربط الخطاب القرآنيّ ربطًا وثيقًا بين العلم والتقوى من ناحية، وبين العلم والحكمة من ناحية أخرى، لأنّ العلم من ثمرات التقوى، كما أنّ الحكمة من ثمرات العمل بالعلم الحقّ الذي يتعلّمه الإنسان، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٣٦]. وقال: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[٣٧]، فأولو الألباب والعقول التي تجهد في الوصول إلى المعارف هم الذينَ يقدّرون الحكمة وأهلها، وهم القادرون على تذكّر نِعم الله وتوجيه الناس إليها.

كما تعرّض الخطاب القرآنيّ إلى تبيان أهمّ عوامل الهداية من خلال

---

(٣٣) سورة **فاطر**، الآية ٢٨.

(٣٤) سورة **الزمر**، الآية ٩.

(٣٥) سورة **النحل**، الآية ٤٣.

(٣٦) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٢.

(٣٧) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٩.

التركيز على نبذ التجاذبات والجدليّات العقيمة التي يتناسى عندها الناس الحقّ ليتابعوا آراءهم وليسفّهوا آراء الآخرين المخالفين لهم وليصبح العلم الجامع سببًا في الخلاف والفرقة والتنازع والتصادم فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٣٨].

فالكتبُ المنزّلة التي جاءت بالحكمة والهدى والرشاد والعلم، تهدي إلى الحقّ وتسدّد إلى الطريق القويم متى كان العلم بها مقترنًا بالإيمان التطبيقيّ الذي يرجو به المرء وجه الله ومرضاته، بينما يسير المعاند في طريق الانحراف والضياع عندما يخالف المفاهيم بهواه فيقع في الكفر، إذ يقاتل وهو قائم على باطله، وهذه سنّة كونيّة أشار إليها الخطاب القرآنيّ لتكون أمّة الإسلام على قدر من الوعي الكافي بمآل من سبقهم وأسبابه فقال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٣٩].

ولأنّ العلم باب مفتوح لا يغلق، ولأنّ من أعظم المعارفَ والعلوم معرفة الله تعالى، كان الخطاب القرآنيّ إلى النبيّ يستنهضه؛ وهو الذي طالما توقّد إصرارًا وعزيمةً - رغم العدوان الدائم عليه وعلى أتباعه - على نهج منهج الله بأرفع ما يمكن أن يسير عليه سائر الرسل والمعصومين؛ كان خطاب الله تعالى وأمره التوجيهيّ إلينا من خلال نبيّه الكامل المكمّل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا

(٣٨) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

(٣٩) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٣.

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (٤٠). ولعلّ هذا الخطاب منه تعالى يرشد إلى أنّ العلم بحر لا يدرك ساحله، وأنّ العلم بالله تعالى مجمع تلك الأبحر، عنه تصدر، وبأمره تفيض وتتحرّك، ومنه تستمدّ كلّ حركة وسكون. فالعلم بالله إلهًا ربًّا واحدًا قادرًا مالكًا، لا يفنى ولا ينتهي ولا يُدرك كنهه وحقيقته غيرُ النذر اليسير من خلّص خلق الله، من خلال سيرهم إلى الله ولله ومع الله وبالله السرمديّ الأبديّ سيرًا يرثه الوارثون إلى يوم الدين علمًا ومعرفةً إذ تفنى الجماعات والأمم ولا تفنى هذه المعرفة لأنّها معرفةٌ بالدائم الذي لا يفنى.

وإذا كان كثيرون يقلّلون من شأن العلم ويقدّمون الجهاد بالمال والنفس على الجهاد في طلب العلم وتحصيله وتعليمه، فإنّ الله تعالى جعل التكامل النهضويّ في حياة الأمّة الإسلاميّة يستند على جملة من العوامل التي يجب الاعتناء بها وإيلاؤها الأهمّيّة البالغة، من دون أن نقدّم أمرًا ونؤخّر آخر. إذ إنّ التقدّم يحتاج إلى القدرات مجتمعةً فاعلةً كخليّة النحل التي لا تهدأ ولا تنتهي أعمالها إلّا بتقسيم الأعمال على مجموع أفرادها، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤١). فإذا ما خلت الساحة، وانطلق القوم إلى ساحات الجهاد والقتال، فهذا لا يعني أن تصبح الأمّة بلا مصلحين يقومون على رعاية أبناء الأمّة، وإلّا كان الجهاد ساعتئذٍ وبالًا على الأمّة، إذ يقضي على خيرة شبابها في سبيل تحقيق قضيّة ليس لها من يتابعها ويهتمّ بها على أرض الواقع وفي حياة الأمّة ومستقبلها. ولقد أكّد الخطاب القرآنيّ على هذا المعنى لأنّ النهضة لا تتحقّق إلّا بتضافر الجهود والقوى المتكاملة فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

(٤٠) سورة محمّد، الآية ١٩.

(٤١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [٤٢].

فالنفير العامّ والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله لا بدّ له من حرّاس يكونون هم عماد الجهاد والنفير بما يبثّونه في نفوس الناس من خلال الغذاء الروحيّ المستمدّ من القرآن والذي ينشرونه عبر تعليمهم الناس وإنذارهم عواقب المتخلّفين عن ركب الإيمان، فكما ينفر المجاهدون ليضحّوا في سبيل الله بدمائهم وأرواحهم، يجب أن ينفر طائفةٌ يضحّون براحتهم وأوقاتهم في سبيل تعليم الناس رجالًا ونساءً وأطفالًا وخدمتهم وتثقيفهم؛ الأمر الذي يكفل عدم رجوع المجتمع القهقريّ، بل يكفل عدم وقوعه في مطبّات سبق أن وقع فيها أو وقعت فيها الأمم السابقة.

وجوب اقتران العلم بالعمل

أختم حول العلم بضرورة ارتباطه بالعمل، ولا سيّما في أواسط العلماء والمصلحين القائمين على تفهّم خطاب القرآن قائد نهضة البشريّة ومصحّح مسيرتها، ولقد شدّد الله تعالى على وجوب ارتباط العلم بالعمل فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [٤٣].

فإذا كنّا نتعلّم العلم الدنيويَّ لخدمة دينِ الإسلام، وإعلاء رايةِ القرآن، وإذا كنّا نتعلّم العلم الدينيّ لإنقاذ البشريّة من الضلال المبين الذي خيّم عليها، فعلينا أن نؤمن بأنّ هذا الطّريق الذي اخترناه يجعلنا قدوةً صالحةً بيّنة لنا، سينظرون إلى أعمالنَا قبل الاستماع إلى أقوالنا ونصائحنا، ونحن – إن أردنا هذا السبيل الذي يجعلنا عند الله من المقرّبين – يجب أن نحاسب أنفسنا على كلّ عملٍ صغير أو كبير كيلا يتوهّمَ العامّة من النّاس بأنَّ أخطاءنا التي نرتكبها ليست إلّا من الشرع والدين ولو كانت أبعد ما

(٤٢) سورة **التوبة**، الآية ١٢٢.

(٤٣) سورة **الصف**، الآيتان ٢ و٣.

يكون عمّا نزّل ربّ العالمين.

ولئلّا ينخدع الناس بغيرهم من مدّعي العلم والصلاح، ولئلّا يخدع المرء ذاته وهو يظنّ بنفسه الخير والصلاح حال كونه بعيدًا عن منهج الله وخطابه، ربط صلّى الله عليه وآله بين العلم والعمل مؤكّدًا ما جاء في كتاب الله تعالى فقال: «إنّ الإيمان ليس بالتحلّي ولا بالتمنّي، إنّ الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل»[٤٤].

وهذا المعنى نفسه تناقله العلماء عن أئمّة آل البيت عليهم السلام الذين كانوا خير وارث للرسول وللرسالة، فعن أمير المؤمنين، عليه السلام، أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الإيمان إقرار باللسان، ومعرفة بالقلب، وعمل بالأركان»[٤٥].

ولقد سار أكابر علماء أهل السنّة والجماعة على خطى النبيّ وخطى أهل بيته من بعده في كلّ القضايا الإيمانيّة، وفي هذا الصدد يقول اللالكائي: «واختيارنا أنّ الإيمان قول وعمل، إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان»[٤٦].

أمّا الصحابيّ الجليل أَبُو ذَر الغفّاري، فقد جسَّد عمليًّا الطريقة المثلى التي ينتهجها كلّ من تلقّى إيمانيّاته الصحيحة من مدرسة النبيّ وآل بيته الأطهار، فكان بحقّ قدوةً على طريق نهضة العلماء والمصلحين المضحّين في سبيل تقديم الخطاب القرآنيّ بديلًا عن كلّ الخطابات التي توسّل بها الحكّام آيات من القرآن ليفسدوا ما أصلحه النبيّ، ويغيّروا ما قرّره، ويبدّلوا القواعد التي أرساها، كلّ ذلك باسم الدين والعقيدة، لهؤلاء ولأمثالهم يقول أبو ذر: «لَوْ وَضَعْتُمْ الصمْصَامَةَ (أي: السيف الصارم الذي

---

(٤٤) ابن أبي شيبة الكوفي، **المصنّف**، تحقيق وتعليق سعيد اللحّام (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، الجزء ٨، الصفحة ٢٥٨.

(٤٥) الشيخ الطوسي، **الأمالي** (قم: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة١، ١٤١٤هـ)، الصفحة ٣٧٠.

(٤٦) اللالكائي، «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة»، في: مركز المصطفى، **المعرفة والعمل.. اشتراط كلّ منهما بالآخر**، الجزء ١، الصفحة ١٧٦.

لا ينثني) عَلَى هَذِه، وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ (أي: رقبته) ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً (أي: أقدر على تبليغها) سَمِعْتُهَا مِنَ النبيِّ، صَلَّى اللَّه عَلَيْه وآله وَسَلَّمَ، قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ (أي: تقضوا علي وتقطعوا رأسي) لَأَنْفَذْتُهَا»[٤٧]. إنّ العالم الذي يعمل بعلمه لا يهدأ له بال حتّى يبلّغ العلم لأشباهه لينقلوه بدورهم إلى أشباههم - وهكذا دواليك إلى أن يتمّ الله نوره - بلا خوف ولا وجل ولا ضعف أمام المغريات التي تجعل العالم عبدًا للدنيا والمال، ينسى أمام بريق الذهب ولمعانه بريق الإيمان وحلاوته وراحته وواجب النهضة به.

هذا هو العلم الذي يجب أن يتحلّى به العالم، العلم الذي يغيّر الكون ويحيي الإنسان، ويحلّق به في أرجاء كلّ نهضة ليجعله مستعدًّا لإنقاذ الواقع من الخرافة والجهل والعبادة لغير الله والاستجابة للظالمين الذين يتحدّون خطابه منبع كلّ نهضة سويّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الجهاد وخيارات حماية النهضة القرآنيّة

يروّج الكثير من الباحثين لفكرة من الأفكار القرآنيّة بمعزل عن الخطاب الكامل الذي من شأنه النهوض بالأمم والمجتمعات والأفراد، فيرى في الإسلام ما رآه رجالات الكنيسة الذين جعلوا الناس عبيدًا للحاكم يتصرّف بمصيرهم كيفما شاء، وذلك تحت ذريعة المحبّة والسلام والأخلاق التي تدعو إلى ذلك. ومن ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر. مع الإشارة إلى أنّ هذه القاعدة سرعان ما كان رجالات الكنيسة وباباواتها يغيّرونها عندما يبعثون حملاتهم إلى بلاد الشرق ليستولوا على خيرات العالم بلا سلام ولا شفقة ولا رحمة ولا إنسانيّة، عندها كانت لغة الدم هي اللغة الوحيدة التي يعرفونها، ويجيدونها! هي اللغة الفريدة التي يتكلّمونها! كانت تعاليم الإنجيل تذوب وتضمحلّ وتختفي إزاء المصالح، لكنّ هذه اللغة ظلّت المسيطرة على الألسن من خلال الخطابات الكنسيّة، والتي كانت تتحوّل

---

(٤٧) البخاري، **صحيح البخاري** (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، الجزء ١، الصفحة ٢٥.

إلى لغة دمويّة متى عزمت إرادة الحاكم والظلمة على الانقضاض على فريسة ضعيفة.

أمّا الخطاب القرآنيّ الذي يهدف إلى الرقيّ بالإنسان والحفاظ على وجوده، فلم يكن ليخاطب أتباعه خطابًا مزدوج المعايير تتحكّم به المصالح والأهواء، ولقد أدرك الناس جميعهم هذا المعنى، لكنّ البعض شاء أن يسلّط الضوء على جانب من الجوانب القرآنيّة بعيدًا عن أجواء الآيات وأسباب نزولها بحيث صوّر الإسلام بصورة مستقبحة مستوحاة من صور رجال الدين الذين قادوا الحملات الصليبيّة، الأمر الذي دفعهم بدافع الجهل أو الخوف أو العمالة لأن يدّعوا بأنّ الإسلام دين سلام لا يسمح بردّ العدوان، ولا يقبل استرداد الحقوق التي أخذت منه وسُلبت قهرًا وعدوانًا وظلمًا بالقوّة.

وظلّت هذه الفئة تفبرك الإسلام حسب المخطّطات السياسيّة الرامية إلى استئصال الإسلام والقرآن حتّى صنعوا من الجهاد مغامرة، ومن القوّة التي تردّ العدوان إرهابًا، بينما وقفوا أمام قوّة العدوّ عاجزين، أمام عدوانه ساكتين، أمّا أمام المجاهدين المضحّين الذين قهروا العدوان ودحروه بقوّة الإيمان الذي استلهموه من خطاب الله تعالى فطالما وقفوا في وجههم أقوياء أشدّاء متذمّرين. وهم يتعلّلون دائمًا بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤٨). يحفظون ويردّدون هذه الآية بوعي أو من دون وعي، لا يهمّ، يضحكون على الناس ويستغبون الضعفاء وكأنّهم لم يدرسوا أرضيّة العدو وطريقة عدوانه المستمرّ على البلاد والعباد. لم يروا الصهيونيّة وهي تستهدف الأطفال والنساء والشيوخ والأبرياء يوميًّا، تطردهم من منازلهم وبلادهم، وتقضي على مصالحهم وأموالهم، وتُفرغ القرى من أهلها، وتأتي بيهود الشتات لتجمعهم في أرض الميعاد.

---

(٤٨) سورة **الأنفال**، الآية ٦١.

لم يشهدوا صنيع الدول المستكبرة بالعالم العربيّ والإسلاميّ واستخدامه كقواعد للإرهاب والاعتداء على كلّ من تسوّل له نفسه الخروج عن قبضتها، فاستخدام الأسلحة النوويّة في الدول الإسلاميّة ليس إرهابًا! والسجون التي ارتكبت فيها أفظع الجرائم اللاإنسانيّة ليس إرهابًا! والتدخّل السافر في شؤون البلاد والعباد ليس إرهابا! ودعم القوى الصهيونيّة والاحتلال لفلسطين ليس إلّا سلامًا! لم يرَ الكثير من هؤلاء الناس الأسرى المسلمين في سجون الأعداء، لكنّهم استنكروا أسر جنديّ وجنديين مبرّرين للعدوّ عدوانه من قبل أن يطلب منهم مبرّرًا، فيا لهم من كرماء.

والأغرب من ذلك أنّهم تغاضوا عن جرائم العدوّ كلّها التي لا تتّسع لها الموسوعات، ثمّ صرّحوا بأنّ ما حلّ لم يكن ليحلّ لو أنّ المغامرين لم يغامروا، أو لو أنّ المجاهدين لم يجاهدوا، أو لو أنّ الأعزّة ذلّوا واستسلموا.

إنّ هذه القضيّة ليست جديدة على المسلمين الذين يعون الخطاب القرآنيّ ومبعث الحياة النهضويّة فيه عبر اتّخاذه كتاب عمل وتطبيق من خلال فهم مضامينه. ولقد أشار القرآن إلى مثل هذه الحالة إذ أخبرنا عن المنافقين الذين تتجدّد كلماتهم في كلّ زمان وهم يتّهمون الفدائيّين الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا بعدم الاستماع إلى نصائح الجبناء والضعفاء، يتّهمون الذين قضوا نحبهم بالتهوّر والمجازفة في محاربة الظالمين والمعاندين والجاحدين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[49].

هكذا كان جواب الله تعالى لهم وهم يدّعون العقلانيّة والفهم والاستمساك بالحياة والخوف على مصالح الناس وأرواحهم، كان تحدّي الله تعالى لهم أن ادرأوا وأبعدوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في ادّعائكم. لكنّها المؤامرة والخذلان وبيع الدين بالدنيا واسترضاء العدوّ الذي يمتلك القوة: قوّة السلاح، قوّة العدوان، وقوّة السفك والإجرام،

---

(٤٩) سورة آل عمران الآية ١٦٨.

وقوّة المال. ثمّ يدّعون أنّ إخوانهم لو أطاعوهم في تخاذلهم لما ماتوا ولما انتهت آجالهم المقدّرة، وهذا دليل آخر على أنّهم لم يعرفوا طريق الإيمان، ولم يقرأوا خطاب الله الذي ينهض بهم من دركات الذلّ إلى قمم العزّة والنعيم؛ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٥٠).

إنّ الجهاد له كلفة وله تضحيات وأثمان باهظة لا يدفعها كلّ أحد، لذلك وجّه الخطاب القرآنيّ أمّة الإسلام إلى سبيل نهضتها وعزّتها وكرامتها وسعادتها التي لا تتحقّق بلا مواجهة لأهل الشرور والعدوان والانحراف. لا بل إنّ الله تعالى الذي جعل الإسلام دين سلام يُشرق على الإنسانيّة أمنًا ويفيض أنوارًا لا يصل إليها طالبوها ما لم ينفروا في سبيل الله تعالى غير متثاقلين أو راكنين إلى الأرض الفانية التي لا يستقرّ لها متاعٌ ولا يدوم فيها نعيم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥١).

القرآن كتاب جهاد وعلم وعمل، فمن أدّى حقّ هذا الكتاب كان عند الله من المقبولين، لكن حقّه لا يُؤدّى إلّا بالجهاد: جهاد النفس والشيطان والهوى والعدوّ المتربّص بنا كلّ شرّ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٢). وهو يحتاج إلى إعداد على كافّة المستويات العلميّة والإيمانيّة والأخلاقيّة والقوّة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ

(٥٠) سورة **النساء**، الآية ٧٨.

(٥١) سورة **التوبة**، الآيات ٣٨ إلى ٤١.

(٥٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.

الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾[٥٣].

الجهاد في سبيل نَشر خَطاب اَلله الذي يحقّق أعظم نهضة إنسانيّة في الأرض تجارة رابحة مع الله ورسوله، والذي يقلّل من أهمّيّة هذا العمل النبيل إنسان جاهل بجوهر الخطاب القرآنيّ فضلًا عن ظواهره وأحكامه العامّة، إذ الجهاد طريق هداية إلى كلّ خير ينهض بالأمّة، كلّ الأمّة، إلى سبيل التقدّم والرقيّ والوعي والنهضة الحقّة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥٤].

خلاصة

الخطاب النهضويّ مبثوث في كلّ لمحة من لمحات كتاب الله تعالى. هذا الخطاب يتطلّب من العلماء في كلّ عصر وزمان الغوص في أعماقه لأنّ القرآن - كتاب الله المعجز الباقي - لا يحيط بمعانيه البشر الذين خلقوا للفناء. فالفاني لا يدرك الباقي، وإنّما يستطيع تلمّس الحقائق والطريق الذي يسلك به سبيل النهضة والحضارة القادرة على مواكبة أعظم الحضارات مفيدة مضيئة مبشّرة مصحّحة مقتبسة من أنوار القرآن الكريم.

كتاب الله العظيم هو حبله المتين الذي لا يخيب من به اعتصم، ولا يذلّ من إليه لجأ. كتاب الله العظيم فيه نور الحكمة التي لا يؤتاها إلّا أولو الألباب، فيه ينابيع العلم التي لا يرتوي منها غير أهل الذوق والحقائق. إنّه ليفتح للبشريّة أعينًا طالما عميت عن سبيل رقيّها؛ يفتح قلوبًا طالما غلظت باقتفائها طرق المنحرفين عن جادّة الحقيقة، يفتح آذانًا طالما استجابت لغير الله فضلّت وأضلّت، ثم أضحت وهي تسمع خطاب الله لكنّها إليه لا

---

(٥٣) سورة **الأنفال**، الآية ٦٠.

(٥٤) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.

تلتفت، وبنهضته لا تعترف، لكنّها تدّعي الإيمان به والاستسلام له.

وأخيرًا، لا يسعني إلّا أن أردّد ما جاء على لسان الوحي حيث قضى بأنّ القرآن ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[55] وهو الشفاء النافع، مَن قَالَه صَدَقَ، وَمَن عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم.

---

(٥٥) سورة فصّلت، الآيتان ٤١ و ٤٢.

الوحدة الإسلامية في منطلقاتها القرآنية

الشيخ عبد الناصر الجبري
مدير كلية الدعوة في لبنان

التوحيد والوحدة

التوحيد

هو مفهوم عقديّ يعني إفراد المعبود بالعبادة وإثبات ذات وصفات وأفعال له، غير مشبّهة ولا معطّلة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]. وهو الإيمان بأنّه الواحد، وهو مصدر تماسك العلم ووحدته وحركته وغايته ومرجعيّته النهائيّة وركيزته الأساسيّة، وهو خالق البشر الذي يحاكمهم ويمنحهم المعنى ويزوّدهم بالغاية، ولكنّه مع هذا الفارق لهم لا يحلّ فيهم أو في أيٍّ من مخلوقاته، ولا يتوحّد معهم؛ وهو يعني أنّ النظم التوحيديّة تولّد ثنائيّة أساسيّة تبدأ بثنائيّة الخالق والمخلوق التي يتردّد صداها في ثنائيّة الإنسان والطبيعة، ثمّ كلّ الثنائيّات الأخرى في الكون.

فالعقائد التوحيديّة لا تسقط في الواحديّة، ولكنّها في كلّيّتها وتفاعلها تولّد المعنى الذي يمكن الوصول إليه من خلال الاجتهاد. والتجربة الإنسانيّة تجربة حركيّة، والتواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان يأخذ شكلًا حلزونيًّا رغم الشعور بالانتماء إلى منطقة أو عرق أو لغة أو غير ذلك، فإذا كان الجذر للوحدة والتوحيد واحد، فإنّ معنى التوحيد ورد في إفراد الله عزّ وجلّ بالربوبيّة والألوهيّة، لا معبود بحقّ إلّا هو، والمعنى واضح، فوحّده توحيدًا، فهو واحد، وذلك بإجماع القوى العقليّة، والنفسيّة، والروحيّة، والذهنيّة، في اليقين بواحديّة الله والإيمان به وحده لا شريك له سواء كان مادّيًّا، أو معنويًّا.

أمّا **الوحدة** فهي شيء اندماجيّ وإن كان فيها دلالة على التفرّد فهي: مشروع توليفيّ للجمع بين الشعوب الإسلاميّة، ولا شكّ أنّ التوحّد سعي لفعل الوحدة بتأثير وانفعال وقوّة. ومن هنا، كان التوحّد عملًا يحتاج إلى منهج وآليّات، في حين أنّ الوحدة لها وجود في الأساس، وبما أنّ المسلمين

---

(١) سورة **الشورى**، آية ١١.

هم بحاجة لإعادة الوحدة بينهم فإنّ عمليّة التوحيد شملت فرزًا ذهنيًّا لتصفية العقل من شراكة الأفكار الأخرى، وبالتالي فإنّ العمل على ترسيخ فكر الوحدة جعله محور السلوك العامّ، كما هو الحال بالنسبة للإيمان، فالمسألة تحتاج إلى بيان، ودالّ، ودليل يستطيع من خلال دعاة الوحدة أن يحقّق فعل التوحيد.

حقيقة الوحدة

الأمّة الإسلاميّة حقيقة لا وهم وقابليّتها للوحدة يقرّره منطق الدين، ومنطق التاريخ، ومنطق الجغرافيا، ومنطق الواقع، ومنطق الآخرين اتّجاهها، ومنطق المصلحة المشتركة. والفقه هو الذي يقود الدورة الحضاريّة للأمّة ويضبط إيقاعها على موازين الكتاب والسنّة، ويقترح الحلول لمشكلاتها في ضوء أحكام الشرع المقرّرة مهنيًّا بما قرّره علماء الأمّة بأنّ الفتوى لعلّها تتغيّر بتغيّر الزمان، والمكان، والعرف، والحال. فمشروع الوحدة والعمل لها يعترف بالواقع ويعرفه ولكن لا يستسلم له، بل يعمل على التطوير والتغيير وفقًا لأهداف المشروع الوحدويّ، وهو امتداد لما نادى به الأفغاني، والكواكبي، ومحمّد عبده وغيرهم من دعاة الجامعة الإسلاميّة قبل قرنين من الزمن. وفي أواخر القرن الماضي، حوّل الإمام الخميني - رحمه الله تعالى - الفكر الوحدويّ إلى ممارسة بعد نجاح الثورة، وتطوّرت الفكرة في عهد آية الله العظمى السيّد الخامنئي - دام ظلّه - بقدر التجاوب والتعاون معها.

وأعود إلى عنوان بحثي، الوحدة الإسلاميّة في منطلقاتها القرآنيّة، حيث نهى النبيّ، صلّى الله عليه وآله وسلّم، عن الفرقة والتمزّق، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(٢)]، ودعا إلى مبدأ الوحدة من خلال وحدة الأنبياء،

---

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٥.

عليهم الصلاة والسلام، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[٣]، فهي علامةٌ على أنّه الدين الربّانيّ بوحدة الدين ولو اختلفت الشرائع. وفي الآية الجامعة الآمرة الناهية عن التفرقة قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٤] يدعو الله تبارك وتعالى إلى جوهر العقيدة التي تتمثّل في الاتّحاد على طريق الله القويم، واعتبر الاعتصام بحبل الله والالتفاف حوله الطريق الأمثل للوصول إلى الاتّحاد، وفي الحديث الشريف: «كتاب الله حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»[٥].

ويذكر الشيخ محمّد عبده عند هذه الآية أنّ الاستعارة التمثيليّة حيث التمسّك بكتاب الله واتّحاد المسلمين ونصرتهم لبعضهم قد شبّهت بالتمسّك بحبل ثابت يعطي الأمان وعدم السقوط من المكان المرتفع. وكلمة الاعتصام ها هنا تشير إلى العصمة بسبب الاتّحاد على النهج الإلهيّ القويم؛ واعتصموا مقابل الفتن التي أشعلها اليهود بهدف تفريق صفوف المسلمين، وقد ذكر الموضوع قبل هذه الآية الكريمة، واعتبر العلّامة عليّ بن إبراهيم القمّي أنّ الحبل هو التوحيد والولاية، واعتبر الشيخ الطوسي أنّ الحبل هو التمسّك بعهد الله.

وذكر الشيخ النسفي في تفسيره: ينبغي على المسلمين أن لا يقعوا في التفرّق والتشتّت حيث يؤثّر سلبًا على الاتّحاد والاتّفاق بينهم، ولأنّه مع ظهور الاختلاف يتمّ الانحراف عن طريق الحقّ كما كان عليه اليهود والنصارى والعرب في عصرهم الجاهليّ قبل الإسلام، وهم الذين لم يشعروا بالسعادة قطّ لأنّهم كانوا في نزاعٍ دائمٍ فيما بينهم.

---

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٥.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٣.

(٥) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ١٠، الصفحة ٣٦٩.

ونقف عند قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٦]، فقد استخدم الله تبارك وتعالى هنا صيغة النهي، لكي يقول بأنّ الاختلاف ينتزع القوّة والاقتدار من المسلمين، وذكر العلّامة الطباطبائي أنّ اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوّة.

وكتب المرحوم سيّد قطب: لقد جاءت «أطيعوا» بصيغة الأمر والجمع دليلًا على أنّه أمر صادر إلى الجميع بالطاعة وتطبيق أوامر الله والرسول. وفي الحقيقة، إنّ **القرآن الكريم** يريد أن يقول: إنّه لو وجدت إطاعة الله ورسوله بين المسلمين فإنّ الاختلاف سوف يزول وسوف ترجع عظمة وسمعة وجلالة المسلمين، وتابع يقول: فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأوّل الرئيس للنزاع بينهم.

على أيّة حال، فإنّ الله سبحانه وتعالى يأمر الناس في هذه الآية إلى تجنّب الفرقة والنزاع؛ لأنّها تؤدّي إلى ضعفهم وهزيمتهم أمام الأعداء، ويصبحوا غير مقتدرين ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وقد أورد المفسّرون عدّة معانٍ للريح منها: القوّة، والدولة، والعزّة، والكرامة، والنصر، وغيرها.

ولكي يركّز الله المتعالي على مسألة الوحدة أكثر فأكثر في أذهان المسلمين، ولكي ينهاهم عن الفرقة قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[٧].

ويقول الشيخ الطبرسي: المراد هو أن لا تكونوا مشركين كالذين أوقعوا في دينهم الخلاف وصاروا ذوي أديان مختلفة. فقد دعا **القران الكريم** المسلمين مرارًا إلى الوحدة، ودعاهم إلى تجنّب التفرّق والتشتّت، وأعطى أهمّيّةً فائقةً لرفع الاختلافات، وأصدر أوامره بالإصلاح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(٦) سورة **الأنفال**، الآية ٤٦.

(٧) سورة **الأنعام**، الآية ١٥٩.

إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[8]؛ فهذه الآية الكريمة أوضحت بدايةً أنّ العلاقة بين المؤمنين علاقة أخوّة، وهكذا يجب أن تسود الصلة بينهم، وأنّ الإصلاح فرض إلهيّ عند الاختلافات، وأنّ مصاديق الدعوة إلى الوحدة جليّة بشكل تامّ وعامّ.

إنّ الدين الإسلاميّ دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشدّ أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين، والقرآن الكريم شاهد على كلٍّ بعمله، قاضٍ عليه في صوابه وخطئه.

---

(٨) سورة **الحجر**، الآية ١٠.

القرآن في تجربة ثقافة الإسلام الحركي

الدكتور نجيب نور الدين
مدير مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر في لبنان

ارتبط **القرآن الكريم** منذ البداية بحركة الدعوة المحمديّة الإسلاميّة. وكان المحرّك الأساس لديناميّات الاجتماع العربيّ التي تكلّست مفاصله بفعل العادات والتقاليد والمعتقدات التي أرست نمط حياة سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة كرّست الانقسام والتفاوت، وعزّزت سلطات الاكراه، عدا عن تفشّي أمراض الانحراف والرذيلة من عبثٍ ولهوٍ ومجونٍ، وحروبٍ داخليّة بين قبائله ومناطقه جعلت الجزيرة العربيّة جزرًا يتربّص بعضها بالبعض الآخر.

إنّ سمة **القرآن الكريم** الأساسيّة أنّه دين يحمل في مجمل آياته ثقافة حركيّة محرّكة. فلولاه ما استطاع الرسول (ص) أن ينقل مجتمعًا بهذه الصورة من القتامة، إلى الوضع الذي استقام عليه عشيّة استكمال نزول **القرآن الكريم**، وإتمام النعمة الإلهيّة على رسول الله (ص) والمسلمين.

ومن مكامن القوّة في تحريك القرآن لحركة الرسالة الإسلاميّة، توفّره على آليّات الدفع التي حملتها آيات القرآن وكثّفت فيها لغة الأمر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[1]، كذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2]، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[3]، وغيرها من الآيات التي مثّلت بصيغتها الأمريّة قوّة دافعة جازمة باتّجاه التغيير. وهي بهذا المعنى كانت تسعى:

أوّلًا: إلى تثبيت النفس الرسوليّة، وشحن هذه الروح النبويّة بكلّ عناصر القوّة التي تخوّله الانطلاق بالدعوة دون خوف أو حسابات دنيويّة.

وثانيًا: إلى تلبية مضامين الدعوة التي حملتها الآيات المباركة والتي لا تنفكّ تدفع باتّجاه حصول تغيير جذريّ في الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ القائم.

لقد تناولت الآيات القرآنيّة الأولى، في معظمها، الحديث عن الرسول وتوجّهت إليه في إرشادها وغاياتها. لكن بعد أن قوي عود المسلمين،

---

(١) سورة **المدّثّر**، الآيتان ١ و ٢.

(٢) سورة **الحجر**، الآية ٩٤.

(٣) سورة **الشورى**، الآية ١٥.

واشتدّ ساعدهم، وأصبحوا كتلة يُعتدّ بها، بدأ **القرآن** يوجّه الحديث إلى المسلمين والمؤمنين كجماعة، ويحثّهم على التحرّك والتغيير باتّجاه الأفضل. وقد كثرت الآيات التي تحدّثت للمسلمين بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارة ودلالة على اتّساع مدى ما يُراد أن يبلغه تأثير الآيات القرآنيّة الكريمة.

ومع ذلك، فإنّ تحريك **القرآن** لقطاعات الأمّة الناشئة لم يكن باتّجاه واحد، إنّما باتّجاهات عدّة، طاولت معظم مناحي الاجتماع العربيّ آنذاك. فقد نحت هذه الآيات منحىً سياسيًّا مرّة، واجتماعيًّا أخرى، واقتصاديًّا ثالثة، وأمنيًّا رابعة، وهكذا. بمعنى أنّ **القرآن** أراد أن يكثّف خطابه للأمّة منذ البداية، بغية تحريك مختلف مجالات الاجتماع العربيّ، وتوسيع مدى تأثيراته، بهدف تكوين ثقافة رساليّة بديلة لتلك الثقافة التي تحوّلت إلى ما يشبه القضاء والقدر عند العرب قبل الإسلام، والتي غالبًا ما كانت السمات الجاهليّة إحدى مكوّناتها الأساسيّة، أو الصفة الإجماليّة التي تُعرف بها هذه المجتمعات.

إذًا، كانت مهمّة الرسول هي تجسيد **القرآن الكريم** آيات وتعاليم ومفاهيم ورؤية في المجتمع لتسهيل عمليّة عبوره من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والجاهليّة، إلى نور الإسلام والمدنيّة.

وما كان ذلك ليتمّ دون أن يكون للإسلام قدرة تتجاوز التعاليم الإرشاديّة، بل إنّه حمل من الوصايا السياسيّة الملزمة ما خوّل الرسول محمّد (ص) إقامة نواة مجتمع إسلاميّ مهّد لمجتمع إسلاميّ افتراضيّ، مقدّر له أن يعمّ الكرة الأرضيّة، إذا ما تسنّى له النماء في عقول وقلوب الذين سيحملون هذه الرسالة إلى العالمين.

ولعلّ سعي الرسول إلى إقامة حكم الله في الأرض كان من أولى المهام التي شغلته على مدى عمره الشريف. فمنذ البداية، كانت حركة الرسول تهدف إلى إقامة الحكم الإسلاميّ؛ فالمجتمع العربيّ الجاهليّ آنذاك ما

كانت تسمح للرسول بالاستمرار في دعوته الناس إلى الإسلام والإيمان إلّا بزحزحة منظومة السلطة في مكّة.

فحكّام مكّة كانوا يمانعون الرسول من القيام بأيّ تحرّك أو عمل دعوويّ إرشاديّ تربويّ، ويقفون في مواجهة أيّ مسعى تغييريّ يهدّد مصالحهم ومكانتهم التي أشادوها على قواعد الظلم والفساد. لذلك حاول زعماء قريش بشتّى الطرق منع الرسول من أداء رسالته مرّة بالترغيب ومرّات بالترهيب، والسيرة النبويّة الشريفة مليئة بالروايات التي تصوّر الوقائع المؤلمة لمعاناة الرسول وأتباعه في مراحلها الأولى.

هذا، والمسار الرسوليّ كان لا زال يحاكي الرؤية القرآنيّة العامّة لحركة الدعوة، وتلحظ فيها سياقات تفترضها كلّ مرحلة من مراحلها. كان القرآن، بما هو وحي منزل، يجيب على كلّ تساؤلات الواقع وتقلّباته، ويرشد الرسول وأتباعه إلى مكامن القوّة والضعف التي تعترض طريقهما، ويبيّن تلك العلاقة الجدليّة بين النصّ والواقع. فالقرآن ليس نصًّا افتراضيًّا معزولًا عن حركة الرسالة، بل هو آيات نزلت في مناسبات مختلفة كانت تجيب عن تساؤلات الواقع وإشكالاته وتكوّن لدى الناس والمسلمين ثقافة جديدة لم يألفوها من قبل؛ ثقافة أحدثت انقلابًا نوعيًّا في الواقع العربيّ نقلته من جاهليّته إلى الإسلام على أيدي أشرف الأنبياء وخير خلق الله كلّهم.

كما كان أيضًا محرّكًا لرسول الله (ص) ومرشدًا له في أداء رسالته الإسلاميّة الإلهيّة، وهو مَن قام بالأمر على أكمل وجه حتّى أتاه الأجل، فإنّ هذا النموذج من الاقتداء من قبل العاملين على التغيير سوف يتكرّر مع مرور الأجيال. فقد أوصى الله سبحانه وتعالى الأمّة أن لا تستكين وتتهاون مع قضيّة الدعوة في أيّ مرحلة من مراحلها. فهي دعوة حيويّة متحرّكة لا تتوقّف عند نبيّ أو إمام أو خليفة أو ما شابه، بل هي على مدى الزمان، وخطاب الله قد تكرّر في مواضع كثيرة، مشيرًا إلى مسؤوليّة المسلمين

اتّجاه الدعوة من خلال منطوق الآية الكريمة ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾[٤].

إنّها دعوة مطلقة لا تتوقّف عند زمن أو قوم أو مجتمع، فلا بدّ دائمًا من وجود فئة تتمثّل دور الرسول محمّد (ص)، وتستكمل الدعوة إلى الله بالطرق والوسائل التي تتلاءم مع زمانها وإمكاناتها ووسائلها المختلفة والمتنوّعة. فتنوّع المجتمعات وتوالي زمانها لا يغيّر من أهداف الرسالة أو من غاياتها ومقاصدها، وأوّلها على الإطلاق هو إخراج الناس من الجاهليّة إلى الإسلام، ومن الظلمات إلى النور، ومن ثقافة العائلة والعشيريّة والقبيليّة إلى ثقافة المجتمع والأمّة، ومن ثقافة الأديان الوثنيّة إلى ثقافة الأديان التوحيديّة.

هذا ما عمّمته الدعوة الإلهيّة من خلال القرآن الكريم، وجعلت التصدّي له واجبًا على أبناء الأمّة الإسلاميّة في كلّ مرحلة من المراحل التي تواجه فيها الأمّة حالات من الوهن والضعف، ويتكاثر المتربّصون بها شرًّا، ويصبح العمل بالقرآن وآياته وتعاليمه أمرًا مستهجنًا أو مستنكرًا أو مستهدفًا. في جميع هذه الحالات، لا بدّ أن يتصدّى مِن الأمّة مَن يقوم بأمر إعادة إحياء حركة الدين، وإعادة الإسلام إلى الحياة، وإعادة قيادة الحياة إلى الإسلام، كما يقول الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر (رض).

من هنا، نفهم أنّ الإسلام من خلال القرآن هو مشروع حركيّ يهدف دائمًا إلى إقامة حكم الإسلام وتوكيد إسلاميّة المجتمع في أيّ مرحلة من مراحله التاريخيّة.

وهو ما سنجده جليًّا في مطلع القرن العشرين عند المجموعات والقيادات التي راعها ما وصل إليه حال الإسلام والمسلمين من التردّي والهوان بعد انهيار الدولة العثمانيّة، وتراجع مكانتهم بين الشعوب والأمم إلى مكانة

---

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

غير لائقة بدينهم ونبيّهم وتاريخهم ومقاصد إسلامهم، فانطلقوا لتغيير هذا الواقع الذي ما عاد يقبل الركون إليه بعد أن استبدّ به مرضان رهيبان: الجهل في الداخل، وتكالب الدول الاستعماريّة على الأمّة في الخارج.

وبالتأكيد لم يكن أمام هؤلاء الدعاة القادة إلّا **القرآن الكريم** مرجعًا ومحفّزًا لاستعادة زمام المبادرة بإعادة الأمّة إلى أصالتها، وروحها إلى التوقّد، للخروج من واقعها المرير الجاهليّ على حدّ تعبير ووصف هؤلاء الدعاة، والانعتاق من نير المستعمر الخارجيّ والمستبدّ الداخليّ.

وبعد أن خلص توصيفهم للواقع الاسلاميّ إلى حالة ميؤس منها، كان الاستنجاد **بالقرآن** وآياته ومفاهيمه سبيلًا لتدشين حركة تحرير جديدة، تنقل المجتمعات العربيّة والإسلاميّة من جاهليّتها الجديدة أو جاهليّة القرن العشرين، على حدّ تعبير سيّد قطب، إلى نور الإسلام والإيمان. وهذا ما لن يتمّ إلّا من خلال إعادة مفاهيم القرآن الحركيّ حول الحكم والحاكميّة ومكانة الإنسان في **القرآن** الذي أراده الله خليفة له في الأرض.

حركيّة الثقافة القرآنيّة

يمثّل **القرآن الكريم** المصدر الأوّل والأساسيّ لوعينا وقيمنا وسلوكيّاتنا وشريعتنا ومفاهيمنا عن الكون والإنسان والحياة، وهو بإجماع المسلمين «المصدر المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[٥].

وعليه، فهو المصدر الأوّل لثقافتنا الإسلاميّة؛ هذه الثقافة المستندة إلى ثوابت العقيدة في أصولها وفروعها ومتحرّكات المفاهيم في مبانيها ومعانيها ودلالاتها وقضاءاتها الممتدّة في الزمن، ولا يغيّر من هذه المداميك اختلاف المسلمين في تفسيره واستنطاقه، المهمّ أن يكون التعامل مع النصّ القرآنيّ تعاملًا حيويًّا يلحظ وبشكل دائم تطوّر الحياة البشريّة، وتجدّد أسئلتها المقلقة، بحيث يتمّ استلهام الإجابات الشافية حول هذه المستجدّات

---

(٥) محمّد حسين فضل الله، **الاجتهاد** (بيروت: المركز الثقافي العربيّ، الطبعة ١، ٢٠٠٩م)، الصفحة ١٣٠.

المستدامة من روح النصوص القرآنيّة، وبالشكل الذي يعكس روح المعاصرة، والمعايشة للنصّ القرآنيّ، الذي لا تؤطره مناسبات نزول النصّ، أو تعلّبه في لحظة زمنيّة محدّدة، أو تأسره في حدود زمكانيّة تؤيّد معانيه ودلالاته، وتعيق إمكانيّات سبر مقاربته الحركيّة.

فالملاحقة الدائمة للتناصّ بين الواقع المتحرّك والنصّ المتفاعل يفرض دائمًا اجتهادات في فهم آياته ونصوصه، فلا مسوّغ للتجمّد أمام ما أنتجه السابقون من تفاسير، ولا استسلام لما طبع حياة الأوائل من وقائع، بل استمرار في استدرار المعاني في سياق حركتي الواقع والزمن، إذ لا قداسة لما أنتج في مرحلة ما إلّا بالقدر الذي تملك هذه الاجتهادات قوّة الاستمرار في الحركة باتجاه المستقبل.

لذلك «لا بدّ لنا من اعتبار الثقافة القرآنيّة ثقافة متحرّكة في المسألة الفكريّة، بحيث تطلّ على حركة التطوّر المعاصرة في قضاياها وحاجاتها وتعقيداتها. كما لو كان القرآن نزل في هذا العصر»[٦].

فالقرآن يجري مجرى الشمس والقمر، والليل والنهار، وهذا يتوافق مع ما جاء من أحاديث عن الأئمّة (ع) في حقّ القرآن الذي لا تتجمّد حدود تجليّاته عند حدود زمانيّة أو مكانيّة معيّنة. وفي هذا الصدد، يقول السيّد فضل الله:

> إنّ **القرآن الكريم**، فيما نستوحيه من بعض آياته، يريد أن يكون كتاب الدين المتحرّك، كتاب الحركة الجديد، كان يرافق الحركة، ويطلق الآية في حركة الواقع، كان الحدث يتحرّك، وكان القرآن يرافقه، كانت المعركة تنطلق من خلال الإشارة القرآنية، وكان القرآن يتحرّك وسط المعركة، ثمّ يأتي بعد ذلك ليقيّم المعركة كما نقرأ في معركة أحد، ومعركة بدر، [وذلك] لتقيّم المسلمين بإثارة نقاط ضعفهم، ونقاط قوّتهم[٧].

---

(٦) **الاجتهاد**، مصدر سابق، الصفحة ١٣٠.

(٧) محمّد حسين فضل الله، **للإنسان والحياة** (بيروت: دار الملاك، الطبعة٢، ٢٠٠١)، الصفحة٢٩٠.

ومن هنا، يظهر أنّ **القرآن** ليس كتابًا تنظيريًّا، أو كتابًا مثاليًّا يقدّم طروحاته بعيدًا عن الواقع وحركته، وبهذا المعنى، هو ليس كتابًا تعبديًّا فحسب، أو كتابًا أخلاقيًّا فقط، بل هو كتاب الحياة. **فالقرآن**

كتاب الدعوة، وكتاب الحركة، وكتاب الدين، ولذلك يجب أن لا يُفهم **القرآن** بطريقة تجريديّة كما لو كان كتابًا يطرح فكرًا مجرّدًا، بل هو كتاب حركيّ إذا صحّ التعبير، حتّى في الجانب العقيديّ. وعلى هذا الأساس، نستطيع القول أنّ **القرآن** لا يمكن أن يُفهم إلّا من خلال التجربة الإسلاميّة الشاملة، ومن خلال الحركة الإسلاميّة العامّة[٨].

إنّ جوهر **القرآن الكريم** هو أنّه كتاب الإسلام الحركيّ، كذلك اعتبر العديد من العلماء ومفسّرو القرآن الكريم أنّ الإسلام المستند في أصوله وفروعه وتشريعاته إلى القرآن هو إسلام حركيّ، لذلك قال عدد من المراجع «إنّ القرآن لا يفهمه جيّدًا إلّا الحركيّون والإسلاميّون هم الذين يتطلّعون للساحة من خلال الوعيّ الحركيّ للإسلام والوعيّ الحركيّ **للقرآن**».

وبالاستناد إلى كون **القرآن** كتاب الإسلام الحركيّ، عرّفه السيّد فضل الله بأنّه «الإسلام الذي يجعل المؤمنين به طاقات متحركّة تتحمّل مسؤوليّاتها في كلّ القضايا العامّة المتّصلة بالإنسان والحياة، وهو الذي يتطلّع إلى الحياة كلّها ليحرّك طاقاتها وليبدع فيها»[٩].

هكذا فهم السيّد فضل الله، أحد أبرز القيادات الإسلاميّة، الإسلام الحركيّ. وهكذا فهمه وفهمناه عند من سبقه من علماء وقيادات تصدّت للعمل الإسلاميّ الحركيّ من أمثال الشهيد الصدر والإمام الخمينيّ وأبو الأعلى المودوديّ وسيّد قطب وحسن البنّا وغيرهم من مَن سبقوهم، فيما عُرف بعصر النهضة من أمثال الأفغانيّ، وعبدو وغيرهما.

يقول حسن البنّا في معرض توصيفه لحركة الإخوان المسلمين:

---

(٨) **للإنسان والحياة**، مصدر سابق، الصفحة٢٩١.

(٩) محمّد حسين فضل الله، **بيّنات** (بيروت: دار الملاك، الطبعة ١، ١٩٩٩)، الصفحة١١.

إنّ الإخوان لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجدوا من الأمّة من يستعدّ لحمل العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلاميّ قرآنيّ، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كلّ حكومة لا تنفّذ أوامر الله.

ومن صنو هذا الكلام ما تحدّث به أبو الأعلى المودوديّ، عندما أصدر مجلّة ترجمان القرآن عام ١٩٣٢ من مدينة حيدر آباد الركن لتكون المنبر الفكريّ له؛ حيث جعل شعارها كلمات تقول: «احملوا أيّها المسلمون دعوة القرآن وانهضوا، وحلّقوا فوق العالم».

وعندما أسّس حركة "الجماعة الإسلاميّة" عام ١٩٤١ وأصبح أميرًا لها لم يكن الهدف من إنشائها استقلال باكستان عن الهند فحسب بل تحويل هذه الدولة إلى دولة إسلاميّة[١٠].

الإسلام الحركيّ المستند إلى حركيّة الفهم القرآنيّ

عاشت معظم مناطق ودول العالم العربيّ والإسلاميّ بعد انهيار الدولة العثمانيّة ما أُخذ يُعرف بمفهوم ضياع الهويّة. من هنا، توالت الدعوات من قبل العلماء والقادة لاستعادة الهويّة الأصيلة، وهو ما تحوّل فيما بعد إلى الأساس الذي قامت عليه هذه الحركات ضدّ عمليّات الاضطهاد والقهر الاستعماريّ للمسلمين.

ويجدر الإشارة هنا إلى أنّ المسلمين الحركيّين ليسوا وحدهم مَن تصدّى لمحاولات القهر ومسخ الهويّة الوطنيّة في بلاد العرب والمسلمين، إنّما العديد من القوى التي استشعرت القهر والاضطهاد من قبل المستعمر. لذلك انقسمت دعوات الحركات الوطنيّة في تلك الفترة بين مطالب بالاستقلال والسيادة والديمقراطيّة، وبين مَن شكّك في هذه الدعوات التي اعتبرت محاكاة لقيم الغرب والاستعمار، واستعادة محليّة للفئة السياسيّة.

---

(١٠) محمّد عمارة، **الصحوة الإسلاميّة والتحدّي الحضاريّ** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩١)، الصفحات ٨٩ و٩٠.

فشخّصت واقع الحال بأنّ بلاد العرب والمسلمين تعيش نوعًا من أنواع الانحرافات المبدئيّة عن صراط الشريعة الإسلاميّة ومنهجها القرآنيّ، واعتبرت أنّ واقع الأمّة ينطبق عليه حال من يعيش "الجاهليّة الأولى بصيغ جديدة". وإنّ إنقاذها ممّا هي عليه، لا بدّ أن يكون بالعودة إلى "الحاكميّة" الإلهيّة، على قاعدة الآية القرآنيّة الشريفة ﴿مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[11].

لم يكن مفهوم «الحكم» في العصر الأوّل للإسلام يعني غير «الملك» كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[12]. أمّا في الشأن السياسيّ، فالمتداول كان مفهوم «الأمر» كما يتّضح ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[13]، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[14]، وغيرها من الآيات.

ولا شكّ أنّ مصطلح «الحاكميّة» المشتقّ من جذر حكم لم يكن مألوفًا لغويًّا، بل حتّى فكريًّا وشرعيًّا، ولم يرد في المعاجم العربيّة المعتمدة كلسان العرب مثلًا. والأهمّ من ذلك، الالتباس في دلالة المفهوم لجهة أصله اللغويّ ودلالاته القرآنيّة واستخدامه السياسيّ المعاصر. وهذا الالتباس في فهم المعنى الدقيق المقصود يزيد من هذه الإشكاليّة في التعامل مع هذا الاصطلاح[15] لدى الحركات الإسلاميّة الناشئة، والتي أسّست عليه أصل قيامها ووجودها ودورها في إعادة الإسلام إلى الحياة.

من هنا، كان نضال المودوديّ يتركّز على ثلاثة محاور أساسيّة: مواجهة الدعوة إلى «القوميّة»، وضدّ مبادئ «الديمقراطيّة»، وضدّ «العلمانيّة» التي تفصل الدين عن الدولة كما هو حاصل في الحضارة الغربيّة.

---

(١١) سورة **المائدة**، الآية ٤٤.

(١٢) سورة **النساء**، الآية ٥٤.

(١٣) سورة **الشورى**، الآية ٨٣.

(١٤) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(١٥) عبد الغنيّ عماد، **حاكميّة الله وسلطان الفقيه** (بيروت: دار الطليعة، الطبعة ٢، ٢٠٠٥م) الصفحة ١٠.

ويرى المودوديّ أنّ مواجهة هذه المحاور لا تتمّ إلّا من خلال العمل على «الوحدة» و«الحاكميّة» و«الثقافة القرآنيّة».

وإذا كان مفهوم «الحاكميّة» هو المفهوم المركزيّ الذي استدعته أدبيّات الحركات الإسلاميّة ارتكازًا إلى **القرآن الكريم**، فإنّ هذا المفهوم الذي أدخله الداعية الإسلاميّ الباكستانيّ أبو الأعلى المودوديّ إلى التداول السياسيّ، سرى على مستوى الاستخدام الحركيّ في العالم العربيّ في ستينيّات القرن الماضي، مع نشوء تنظيم الإخوان المسلمين الذي أسّسه حسن البنّا، فنظّر له عميقًا سيّد قطب، خصوصًا بعد أن أضفى عليه نوعًا من التشدّد إثر محاولة الانقلاب المجهضة في مصر على حكم الرئيس عبد الناصر بعد ما عُرف بثورة الضبّاط والأحرار.

ولكي يستقيم مبدأ «الحاكميّة»، لا بدّ من الخروج من الجاهليّة الجديدة؛ هذه الجاهليّة التي اتّفق المودوديّ وسيّد قطب، كلٌّ من موقعه الحركيّ، على أنّها سمة المرحلة، فكان هدف تحرّكهما الأساسيّ هو رفعها عن كاهل الأمّة، ومنشأ القول بالجاهليّة الجديدة كما وصفها أبو الأعلى المودوديّ، أو جاهليّة القرن العشرين كما وصّفها سيّد قطب، وجعلها عنوانًا لأحد كتبه، يكمن في رفض هذين القياديّين وإدانتهما للحالة التي وصلت إليها الشعوب من نمط عيش لا يتطابق مع روح الهداية الإلهيّة كما جاءت في **القرآن الكريم**، وابتعادها عن المنهج الإلهيّ حيث يختلط شرع الله بغيره من الشرائع الوضعيّة الأخرى.

فكان استخدام مفهوم الجاهليّة يعكس فهمًا لموروث تاريخيّ كان يصف به العرب حال الناس قبل الإسلام. وهو من جهة أخرى تعبير عن رفض لنمط الفكر الغربيّ وفلسفته التي عملت من وحيه العديد من الحركات الوطنيّة التي نشأت في عهود الاستعمار. ويؤكّد ذلك تشخيص المودوديّ لواقع المسلمين بقوله: «ففكرهم موروث جاهليّ، والوافد الذي أخذوه عن

الحضارة الغربيّة هو جاهليّة جديدة معاصرة»[١٦].

انطلاقًا من هذه القناعة، سعى المودوديّ إلى إعادة تظهير مفهوم «الإنسان المسلم»، أي إعادة التحليل إلى المربّع الأوّل - نقطة الانطلاق- كيف نحدّد مفهوم المسلم لنقول أنّ المجتمع إسلاميّ أو جاهليّ، وما هو الحدّ الفاصل بين الجاهليّة والإسلام؟

هنا يرى المودوديّ، أنّه لا بدّ من العودة إلى رسم الحدّ الفاصل من عهد النبيّ ونزول القرآن الكريم، وأنّ العرب عند نزوله كانوا يعرفون معاني ودلالات الكلمات والمصطلحات، فمثلًا قول لا إله إلاّ الله، يعني كلمة التوحيد، ومبدأ الوحدانيّة المنافية للشرك التي كانت قائمة في الجاهليّة مع تعدّد الآلهة وعبادة الأصنام من دون الله.

أمّا الإشكال، فقد تركّز حول هذا النوع من المفاهيم الذي أزاح الوعي عن إدراك المعاني بشكلها التوحيديّ الإسلاميّ القرآنيّ، وحصل في العصور التي تلت عهد الرسول محمّد (ص) حيث

> تبدّلت المعاني الأصليّة الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، حتّى أخذت تضيق كلّ كلمة من تلك الكلمات الأربعة[١٧] عمّا كانت تتّسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معانٍ ضيّقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مشتبهة[١٨].

وعليه، فإنّ الناس حسب المودوديّ غير قادرين اليوم على «أن يدركوا حتّى الغرض الحقيقيّ والمغزى الجوهريّ من دعوة القرآن». لذلك رأى أنّ العودة إلى القرآن واستعادة دلالات المفاهيم والمصطلحات كما كانت في البدايات، هي السبيل لاستعادة مضامين المفاهيم الأساسيّة التي جاء

---

(١٦) المودوديّ، أبو الأعلى، **موجز تجديد الدين وإحيائه** (القاهرة: دار المسلم، لا يوجد طبعة، لا يوجد تاريخ)، الصفحات ٣٤ - ٣٧.

(١٧) المقصود بالكلمات الأربعة هي: الإله، الربّ، العبادة، الدين.

(١٨) أبو الأعلى المودوديّ، **المصطلحات الأربعة في القرآن** (القاهرة: دار التراث العربيّ، الطبعة ٢)، الصفحتان ٨ و٩.

بها **القرآن**، من قبيل المسلّم والمسلمين، وما إلى ذلك ممّا تتمّ باستعادة تصويبه، وإعادة تركيز الهويّة الإسلاميّة الإلهيّة في وعي المسلمين وفق منطق ومنطوق **القرآن الكريم**.

وإذا كان الأمر يستلزم العمل للخروج من أسر الجاهليّة الجديدة المعاصرة إلى الإسلام كما حصل مع الجاهليّة الأولى، فإنّ الطريق الذي يجب سلوكه هو نفس طريق الرسالة الأولى التي جاء بها محمّد (ص)؛ أي **القرآن الكريم** الذي جعل مفهوم الإنسان ومكانته مفهومًا مميّزًا وكريمًا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١٩]، وجعله من جهة أخرى خليفةً له ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢٠]. وهذا يعني أنّ خليفة الله يجب أن يتحلّى بمواصفات الإنسان بالدرجة الأولى، وبصفة الإسلام بالدرجة الثانية ليستحقّ مكانة الخلافة لله في العصور الإسلاميّة الراهنة أو الحديثة. فالإنسان خليفة الله على مدى العصور. وبعد نزول الإسلام، لا بدّ أن يتولّى المسلمون الخلافة. من هنا، فإنّ الحكومة يجب أن تتكامل مع «الخلافة» وتتجسّد من خلالها.

كما يعتبر المودوديّ، انطلاقًا من فهمه القرآنيّ، أنّ الخلافة الإسلاميّة «خلافة إلهيّة» يقوم بها الإمام بوظيفة «خليفة الله». وعلى هذا الأساس، رفض إطلاق وصف الديمقراطيّة على نظام الدولة الإسلاميّة، بل اعتبر «الحاكميّة الإلهيّة» أصدق تعبير يتّصل بنظام الحكم الذي ورد في **القرآن الكريم**.

وانطلق حسن البنّا مؤسّس تنظيم «الإخوان المسلمين» من القاعدة نفسها، فقد حدّد هذه الدعوة بأنّها «دعوة سلفيّة؛ فهم يدعون للعودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنّة رسوله، وهي طريقة سنيّة، وحقيقة صوفيّة، وهيئة سياسيّة، وجماعة رياضيّة، ورابطة علميّة وثقافيّة، وشركة اقتصاديّة، وفكرة اجتماعيّة»[٢١].

---

(١٩) سورة **الإسراء**، الآية ٧٠.

(٢٠) سورة **البقرة**، الآية ٣٠.

(٢١) رفعت سيّد أحمد، **قرآن وسيف** (القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة ٢، ٢٠٠٢)، الصفحة ٤٢.

إذاً، ينطلق الإخوان المسلمون من الأساس الأوّل لكلّ تحرّك إسلاميّ حركيّ؛ وهو **القرآن الكريم** والسنّة النبويّة الشريفة. وعليه، كان **القرآن** ملهمًا لهذه الحركة لتتقدّم من الجمهور المصريّ المسلّم بخطاب إسلاميّ-قرآنيّ. وقد أعطى استناد هذا الخطاب إلى **القرآن** ثقة كبيرة من هذا الجمهور بهذه الحركة لما **للقرآن** من مكانة في عقول وقلوب ووجدان المسلمين، ولما لديهم من شوق لاستعادة هويّتهم أمام حملات الاستعمار التي سعت إلى مسخ هذه الهويّة الإسلاميّة، وتغريب الثقافة الشعبيّة، عن طريق بثّ أفكار ومفاهيم تعتبر غريبة عن الشعب والجمهور عمومًا، ومعادية، كونها ثقافة المستعمرّ الكافر في اعتقادهم.

ويؤكّد هذا التوجّه ما ذهب إليه سيّد قطب بعد البنّا من أنّه لا بدّ من العودة إلى **القرآن الكريم**، وتجاوز كلّ المقولات التي تنافي هذه المرجعيّة، لأنّ تأصيل التوجّهات الإسلاميّة لا بدّ من أن ينطلق من **القرآن الكريم**، وليس من أيّ مرجعيّة أو مصدر آخر. لذا، سعى لتقديم تفسير جديد وشامل للإسلام، من خلال إعادة تفسيره **للقرآن الكريم** وفق منطق ومنهجيّة حركيّة جديدة، فهو كان يعتبر أنّ التفسيرات التقليديّة للنصّ القرآنيّ لا تفي بالغرض المطلوب؛ أي جعل الإسلام ملازمًا لحركة المجتمع، لذا عمل على إنجاز تفسيره الكامل الشامل الخاصّ المتناسب مع مستجدّات العصر كما رآه، وأطلق عليه اسم **«في ظلال القرآن»**.

ومن خلال **القرآن**، ووفق ما كان يراه من دلالات لآياته ومفاهيمه، توصّل سيّد قطب إلى ما كان قد بدأه أبو الأعلى المودوديّ من أنّ المجتمع العربيّ والإسلاميّ هو مجتمع أصابه ما أصابه من التغرّب والبُعد عن جوهر الإسلام والقرآن، فهو بهذا المعنى قد ابتعد عن غايات الرسالة الإلهيّة التي رسم **القرآن** معالمها، وبات وضعه أشبه بوضع المجتمع العربيّ قبل نزول **القرآن**، أي أنّه مجتمع جاهليّ يسير على غير هدى الإسلام، وقد

عرَّف المجتمعَ الجاهليّ بالقول: «هو كلّ مجتمع لا يخلص عبوديّته لله»[٢٢].

ولا تقتصر الجاهليّة في نظر سيّد قطب على المجتمعات الغربيّة، بل إنّها تسري على كلّ دول وشعوب العالم، بما فيها الشعوب العربيّة، التي تخلّت عن الالتزام بأوامر الله ونواهيه، وتركت تكليفها بإقامة الحكم الإسلاميّ، والتزام الثقافة الإسلاميّة القرآنيّة بين ظهرانيها. وبذلك تخلّت هذه المجتمعات عن الشريعة الإسلاميّة - القرآنيّة، وأخذت بثقافة ومبادئ القوانين والأفكار الوضعيّة ويقول: «إنّ من وضع تشريعًا فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله عزّ وجلّ، وجعل نفسه ندًّا لله تعالى خارجًا على سلطانه». فهذه المجتمعات رضيت بحكم المستكبرين والطغاة والكفرة، وتبنّت الدعوات القوميّة والديمقراطيّة، وغيرها من المبادئ.

وعند هذا الحدّ، يكون سيّد قطب قد تجاوز بحدود تفسيره لجاهليّة المجتمع بتكفير المجتمع الإسلاميّ نفسه، وليس الدولة وحدها، فيخلص إلى «أنّ موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلّها يتحدّد في عبارة واحدة أنّه يرفض الاعتراف بإسلاميّة هذه المجتمعات كلّها وشرعيّتها»[٢٣]. ويضيف في مسعاه إلى توكيد هذه المقولة «إنّ الناس ليسوا مسلمين، كما يدّعون، وهم يحيون حياة الجاهليّة، ليس هذا إسلامًا وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنّما تقوم لتردّ هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد»[٢٤].

انطلاقًا من هذه القناعة، أراد سيّد قطب، كما فعل قبله أبو الأعلى المودوديّ، أن يترك كلّ المقولات الإسلاميّة التقليديّة التي أوصلت المجتمع إلى جاهليّة في القرن العشرين، وأعاد تحديد مفهوم الإنسان والمجتمع المسلم. وهذه النقلة لا تتمّ إلاّ بالطريقة ذاتها التي اجتازتها الحركة الإسلاميّة التنويريّة عندما بدأ النبيّ محمّد (ص) دعوته لإخراج الناس

---

(٢٢) سيّد قطب، **معالم في الطريق** (بيروت: دار الشروق، الطبعة ١، ١٩٨٣)، الصفحة ٩٨.

(٢٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٠٣.

(٢٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٧٣.

«من الظلمات إلى النور»، ومن الجاهليّة إلى الإسلام.

وعليه، اعتبر أنّ تكوين الجماعة المؤمنة «النواة» التي ستكون أساس المجتمع المسلم، تبدأ بالفرد الواحد، كما كان النبيّ في انطلاقة دعوته، وشبّه واقعه بـ «المرحلة المكّيّة»، وهي المرحلة التي بدأت بتجسد الإسلام في الجماعة الجديدة. وهذه الجماعة ستتحوّل مع الحركة النشطة والصابرة المثابرة إلى مجتمع. كما لا بدّ للجماعة الإسلاميّة الجديدة أن تنتهج الطريق نفسه الذي خطّته الجماعة الأولى، وأن تتنكّر لكلّ المنابع الجاهليّة والاقتصار على مصدر معرفيّ عقيديّ وشريعيّ أوحد هو **القرآن الكريم**. لذلك، لا بدّ من التأسّي بجيل الصحابة الذي استقى من النبع القرآنيّ وحده، فكان له فيما بعد المكانة العالية في التاريخ الإنسانيّ. ولقد ظهر هذا الأمر واضحًا في كتاب سيّد قطب **معالم في الطريق** الذي تحدّث فيه بوضوح عمّا أسماه «جيل قرآنيّ جديد».

التيّارات السلفيّة

لم تشذّ الحركات الإسلاميّة السلفيّة، بمعظم تيّاراتها التقليديّة والجهاديّة عن سابقاتها من الحركات الإسلاميّة التي قامت على فكرة مركزيّة هي القول بمبدأ شموليّة الإسلام باعتباره عقيدة وشريعة ونظام حياة، عماده **القرآن الكريم** والسنّة النبويّة الشريفة والسلف الصالح.

ويمكن فيما خصّ التيّارات السلفيّة، الحديث عن مرحلتين قطعتهما كحركات إسلاميّة؛ الأولى تميّزت بنضاليّتها ضدّ الاستعمار. وكان من أبرز نتائج هذا الصراع إبراز التناقض الفكريّ والعقائديّ والثقافيّ مع المشروع الغربيّ، وتعزيز الروح الجهاديّة، وتحصين الأمّة أمام محاولات التغريب تحت عنوان «تفوّق الحضارة الأوروبيّة الغربيّة». والمرحلة الثانية هي حين تجاوزت بطروحاتها الغرب ومقاومة مشروعه الفكريّ والعقائديّ، إلى توسيع دائرة خصومها لتشمل المجال الإسلاميّ نفسه بتيّاراته العلمانيّة

واليساريّة والقوميّة، وحتّى الإسلاميّين العقلانيّين، ما أفسح في المجال لنشوء حالات من المواجهة العنيفة بين هذه التيّارات والتيّارات الأخرى.

خلاصة القول هنا، إنّ سلفيّة الإخوان المسلمين التي بدأت على يد حسن البنّا كانت سلفيّةً إصلاحيّةً ذات بُعد نهضويّ، تحاكي طروحات روّاد الإصلاح الأوائل كالتونسيّ والأفغانيّ والطهطاويّ ومحمّد عبده. بينما التيّارات السلفيّة الأخرى، خصوصًا تلك المغلقة على بيئتها البدويّة، تحوّلت في مسارها العمليّ إلى حركات تكفيريّة جهاديّة في مواجهة الحكّام من جهة، والحركات الإسلاميّة التي تختلف معها من جهة أخرى. وهي بذلك افترقت عن كبار مفكّري عصر النهضة، خصوصًا طروحات الأفغانيّ وعبده، اللّذين كان التركيز في طروحاتهما على تأويل النصّ القرآنيّ والعمل بمقاصد الشريعة، في أساس دعوتهما الاجتهاديّة والحركيّة لإحداث النقلة النوعيّة في حياة المسلمين الفرديّة والاجتماعيّة وصولًا إلى الأمّة نفسها.

وبالانتقال إلى الحركة الإسلاميّة الشيعيّة، وما يعني لها النصّ وخصوصًا النصّ القرآنيّ، لا يسعنا إلّا أن نستعرض آراء كبار مؤسّسي هذه الحركات سواءً الحركات التنظيميّة النخبويّة التي قادها الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر أو الحركات الجماهيريّة التي قادها الإمام الخمينيّ أو حركات المقاومة الفكريّة والثقافيّة، وأبرز رموزها السيّد محمّد حسين فضل الله.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر يلتقي بشكل أو بآخر مع أطروحة «الحاكميّة الإلهيّة» كما ظهرت عند مفكّري الأصوليّة الإسلاميّة السنيّة أمثال أبو الأعلى المودوديّ وسيّد قطب وغيرهما. ونقطة الإلتقاء الأساسيّة هي الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن «الحاكميّة»، وتدفع باتّجاه إقامة الحكم الإسلاميّ عند السنّة بشكل عام، وعند الشيعة في عصر الغيبة إلى حين ظهور الإمام المهديّ (عج) بشكل خاصّ. وذلك لأنّ الحاكميّة لله، والذي تُعدّ مصدر السلطات والاستخلاف البشريّ، لا تقوم

إلّا بحمل الأمانة الإلهيّة على الأرض، بإقامة الحكم الإسلاميّ على ضوء الشريعة الإسلاميّة، المستمدّة من النصوص الأساسيّة، أي القرآن والسنّة، وما ثبت وروده عن الإمام المهديّ (عج).

بين الحاكميّة والشورى وغيرها من أشكال الحكم التي عُرفت في المجال السياسيّ، يميل الشهيد الصدر لأن يُعطي الأمّة صلاحيّة الولاية على نفسها عن طريق الشورى ما لم يرد نصّ خلاف ذلك. وهو يذهب إلى الأخذ برأي الأكثريّة، مبتعدًا عن المفهوم التقليديّ للشورى، ويحصرها في مجال تبادل الآراء بين أهل الحلّ والعقد. وعليه، يعتبر الشهيد الصدر أنّ الحكم الجمهوريّ للدولة مقبولًا أكثر من غيره، لأنّه ليس في هذا النوع من الحكم توريث كنظام الحكم الملكيّ، لكن لا بدّ لهذا النوع من الحكم أن يستمدّ شرعيّة قوانينه من القرآن والشريعة الإسلاميّة، لأنّهما المصدران الأساسيّان للشريعة، وعلى أساسهما تسنّ القوانين. هذا، وفي حال عدم وجود موقف حاسم للشريعة من تحريم أو جواز، يكون للسلطة التشريعيّة التي تمثّل الأمّة أن تسنّ القوانين التي تراها صالحة، على أن لا تتعارض مع الدستور، وتسمّى مجالات هذه القوانين «منطقة الفراغ»[٢٥].

ومنطقة الفراغ هذه، تفتح المجال لمنح صلاحيّات أوسع للسلطة السياسيّة، سواء كانت بصيغة أهل الحلّ والعقد، أو بصيغ المجالس التمثيليّة في السلطات الغربيّة، مع فارق بينهما، هو أنّ المجالس الإسلاميّة محكومة تشريعيًّا بالكتاب والسنّة، وسلطة المرجع النائب للإمام الغائب.

وعليه، «يحتلّ موقع المرجعيّة حجر الزاوية في مجمل البنيان الدستوريّ والشرعيّ لنظام الحكم وفق رؤية الشهيد الصدر، وهو في هذه الرؤية لا يخرج عن الحقل النظريّ للتقاليد الإماميّة، بل يطوّر نظريّة «ولاية الفقيه» من حيث انتهى إليها الإمام الخمينيّ. وهكذا، تتحدّد مسؤوليّات السلطات؛ فالأمّة تمارس الخلافة الإلهيّة كحقّ من حقوقها ضمن إطار الإشراف

---

(٢٥) محمّد باقر الصدر، **الإسلام يقود الحياة** (بيروت: دار التعارف، دون تاريخ)، الصفحتان ٢٢ و٢٣.

والرقابة الدستوريّة من نائب الإمام الذي هو رأس السلطة العليا في نظام آحاديّ يبدأ من القمّة وينزل متدرّجًا إلى القاعدة أو الأمّة»[٢٦].

هذه الخلاصة للسيّد الصدر تقودنا مباشرة إلى الإمام الخمينيّ ونظريّته في ضرورة إقامة الحكومة الإسلاميّة في عصر الغيبة. وفي هذا الصدد، يقول الإمام الخمينيّ: «في عهد الغيبة، لا يوجد نصّ على شخص معيّن يدير شؤون الدولة، فما هو الرأي؟ هل نترك أحكام الإسلام معطّلة؟ أم نرغب بأنفسنا عن الإسلام؟ أم نقول أنّ الإسلام جاء ليحكم الناس قرنين من الزمان فحسب ليهملهم بعد ذلك؟ أو نقول أنّ الإسلام قد أهمل تنظيم الدولة؟ ونحن نعلم أنّ عدم وجود الحكومة يعني ضياع ثغور المسلمين وانتهاكها. فهل يسمح بذلك ديننا؟ أليست الحكومة ضرورة من ضرورات الحياة»[٢٧].

لكن هل يكفي عند الإمام الخمينيّ طرح مثل هذه التساؤلات الجوهريّة عن أمر هو في غاية الأهميّة، ليس لشعب مسلم بعينه، أو لبلد بعينه، بل للمسلمين جميعًا؟ يعدّ الإمام عدم إقامة الحكومة الإسلاميّة تفريطًا منهم بالإسلام وثغوره وكيانه. لذلك يرى أنّ إقامة هذه الحكومة من أوجب الواجبات في عصر الغيبة، لأنّه من دون مثل هذه الحكومة يعني ضياع الأمّة الإسلاميّة وانكشافها أمام الأعداء المتربّصين بها شرًّا.

إذاً، طالما أنّ إقامة الحكومة الإسلاميّة هي من الأمور الأساسيّة والواجبة فكيف يؤسّس لها الإمام، ومن أين سوف يستدلّ على وجوبها؟ يقول سماحته: «إذا كنّا نعتقد أنّ الأحكام التي تخصّ بناء الحكومة الإسلاميّة لا تزال مستمرّة، وأنّ الشريعة تنبذ الفوضى، كان لزامًا علينا تشكيل الحكومة، والعقل يحكم بضرورة ذلك، خاصّة فيما إذا داهمنا عدوّ، أو اعتدى علينا معتدٍ، فلا بدّ من جهاده ودفعه، وقد أمرنا الشرع بأن

---

(٢٦) عبد الغنيّ عماد، **حاكميّة الله وسلطان الفقيه**، مصدر سابق، الصفحة ١٤١.

(٢٧) روح الله الموسويّ الخمينيّ، **الحكومة الإسلاميّة** (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩)، الصفحة ٤٨.

نعدّ لهم ما استطعنا من قوّة نرهب بها عدوّ الله وعدوّنا»[٢٨].

وهنا يماهي سماحته بين الشرع والقرآن، ويشير إلى أنّ الشرع يُستمدّ من **القرآن الكريم**، وحسب رؤيته فإنّ «القرآن المجيد والسنّة الشريفة يحتويان على جميع الأحكام والأنظمة التي تسعد البشر وتنحو بهم نحو الكمال»[٢٩].

وإذ يؤكّد سماحته أنّ دليل إقامة الحكومة الإسلاميّة يثبت بالشرع والعقل معًا، يضيف إليهما أيضًا ثبوته بسيرة الرسول (ص) والإمام عليّ (ع)، ويدعم كلّ ما تقدّم بثبوت ذلك «بمفاد كثير من الآيات القرآنيّة»[٣٠].

ولا يكتفي سماحته باعتبار إقامة الحكومة شأنًا سياسيًّا يعني شعبًا معيّنًا أو إطار إسلاميًّا خاصًّا، بل يؤكّد أنّ إقامة الحكومة الإسلاميّة يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك، أي يعني الأمّة الإسلاميّة جمعاء، إذ إنّ «تشكيل الحكومة يرمي إلى الحفاظ على وحدة المسلمين بعد تشكيلها»[٣١].

ويخلص الإمام الخمينيّ في مقولته عن الحكومة الإسلاميّة إلى توصيف دقيق لها، يردّها إلى الله وإلى كتابه المنزل، فيقول:

> الحكومة الإسلاميّة لا تشبه الحكومات المعروفة؛ فليست هي حكومة مطلقة يستبدّ فيها رئيس الدولة برأيه، عابثًا بأموال الناس ورقابهم؛ وإنّما هي دستوريّة، بمعنى أنّ القائمين بالأمر يتقيّدون بمجموعة الشروط والقواعد المبيّنة في القرآن والسنّة، والتي تتمثّل في وجوب مراعاة النظام وتطبيق أحكام الإسلام وقوانينه، من هنا كانت الحكومة الإسلاميّة هي حكومة القانون الإلهيّ[٣٢].

كما بدا الخطاب الإسلاميّ المستند إلى **القرآن الكريم** واضحًا في نصوص الكوكبة الأولى ممّا عرف بالتيّار الإصلاحيّ العقلانيّ المتنوّر من

---

(٢٨) المصدر نفسه، الصفحتان ٤٧ و ٤٨.

(٢٩) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨.

(٣٠) الإمام الخمينيّ، **الحكومة الإسلاميّة**، الصفحة ٣٦.

(٣١) المصدر نفسه، الصفحة ٣٥.

(٣٢) المصدر نفسه، الصفحة ٤١.

أمثال الطهطاويّ وخير الدين التونسيّ وجمال الدين الأفغانيّ ومحمّد عبده الذين قالوا بضرورة العودة إلى الكتاب والسنّة كإطارين مرجعيّين لترشيد حركات التحرّر العاملة على الخلاص من الاستعمار، والساعية إلى استعادة الهويّة الإسلاميّة الجامعة. كذلك بدا واضحًا في كتابات القيادات الحركيّة الشيعيّة كالسيّد الصدر والإمام الخمينيّ والسيّد فضل الله، الداعية إلى إقامة حكم الله في الأرض بهدف تحقيق العدالة والتمهيد لدولة الإمام المهديّ (عج).

من هنا، يصحّ الاستنتاج أنّ الحركات الإسلامية وقيادات الإسلام الحركيّ تجمع على مسألتين قرآنيّتين باعتبارهما ركيزتين أساسيّتين تستندان إليهما في مرجعيّة تحركّهما السياسيّ والفكريّ وشرعيّته، ألا وهما «الحاكميّة» و«الاستخلاف». فمن هذين المفهومين القرآنيّين تستمدّ مسيرة الإسلام الحركيّ مسارها وأدواتها وأهدافها، لأنّ كلّ هذه الحركات والقيادات هدفت إلى أمر أساسيّ أوحد، وهو إقامة حكم الله وشرع الله في الأرض، وهذا لا يكون إلّا بحكومة أو حاكم إسلاميّ يجسّد المفهوم القرآنيّ للاستخلاف ووراثة الأرض بالمعنى الأعمّ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٣٣].

القرآن الحركيّ والحراك الاسلامي

لا شكّ أنّ القرآن كان الركيزة الثقافيّة المرجعيّة للإسلام الحركيّ الذي جرى التعبير عنه في أدبيّات الحركات الإسلاميّة التي كانت في تعاملها مع الإسلام محكومة لظرفيّة المكان والزمان، ولأولويّات كان على رأسها عودة الإسلام إلى الحكم بعد أن بدا الواقع الإسلاميّ مستهدف من قوّتين تتجاذبانه كلٌّ لطرفها؛ واحدة تريد أن تأخذه إلى نقيضه، والأخرى تبغي مسخه بتحويله شعارًا وغطاءً تناور من خلاله، وتمارس عمليّة استبداد

(٣٣) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٥.

باسمه، الذي لم يُرقّ للطليعة الإسلاميّة الواعية في العالمين العربيّ والإسلاميّ.

لذا بقي القرآن في عُرف هذه الحركات عنوانًا عامًّا، ترسم من خلاله الحركات الإسلاميّة نوعين من الأهداف؛ الأوّل تربويّ دعويّ يريد أن يعيد المجتمع الإسلاميّ إلى الفضاء الأخلاقيّ والفكريّ الأصيل للإسلام. والثاني اجتماعيّ سياسيّ يهدف إلى مواجهة القوى الداخليّة والخارجيّة التي أرادت تحويله عن أصالته في السياسة والإدارة والحكم.

فكان أن اقتصر تعامل هذه الحركات مع القرآن على العناوين المتّصلة بهذين الهدفين، دون النظر إلى إمكانيّة تطوير عمليّات التعامل مع النصوص الحركيّة في القرآن وتجسيدها على أكثر من صعيد، وخصوصًا في ما له علاقة بتطوّر المجتمع، والنظر إلى مشكلاته الاجتماعيّة والاقتصاديّة والإنسانيّة، واجتراح التصوّرات النوعيّة لحياة مدنيّة قاعدتها الإسلام، ومنهلها القرآن، وهذا ما جعل هذه الحركات محدودة الاستفادة من القرآن، ومحكومة لعناوين جامدة استهلكت فهمها له، وإعاقتها عن تطوير هذا الفهم إلى ما هو أبعد من حدود «الحاكميّة» والحكم.

وعُلّقت في سجال طويل مع مناهضيها من مستغربين ومستبدّين، واستنـزفت طاقاتها الفكريّة والعمليّة في المواجهة مع هذين الخصمين، فتخلّفت عن استنطاق العديد من النصوص القرآنيّة التي كان بالإمكان أن تشكّل لها فضاءً معرفيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا يخرجها من مأزق المراوحة في الصراعات، فوقعت أسيرة الأبواب الموصدة التي عملت على فتحها دون البحث عن مخارج مواربة. وهذا ما جعلها تنحو إلى العنف، الذي عنونته بلافتات جهاديّة، وتولّدت من رحم مقولاتها هذه، جملة أدبيّات، جعلها تتخلّف عن رؤية الحقائق الاجتماعيّة بعين قرآنيّة. بل هي أعادت المجتمع وواقعه إلى ما قبل الإسلام، فماهت بينه وبين الجاهليّة الأولى، ونحت منحى الجهاديّة العنفية في بيئاتها، وأدّت لظهور حركات إسلاميّة

مغالية وتكفيريّة ومذهبيّة عصبويّة، حجّمت دلالات النصوص القرآنيّة بحدود وعيها وحركتها، وتعاملت مع القرآن هذه المرّة، ليس بنَفَس تأسيسيّ تأصيلي توجيهيّ، بل بنَفَس تبريريّ طوّع نصوص القرآن لتتلاءم مع أهدافها، فضيّقت بذلك فضاءاته ومعانيه. وتُرجم ذلك على المستوى العمليّ والواقعيّ، قصرًا في النظر، وتعصّبًا في النظرة، ومحدوديّة، بل عدوانيّة أحيانًا في التعامل.

فبات القرآن سلاحًا للصراع داخل البيئة الإسلاميّة الواحدة، بعد أن أصبحت مقولة الأصالة والانحراف، المذهبيّة المنبت، ميزان التعامل مع الآخر المسلم قبل غيره. وما يشهده العالم الإسلاميّ اليوم من تشظٍّ وفتن وأحقاد، هو نتيجة لهذا التعامل القاصر مع القرآن الكريم، ومحاولات تأطير وتجميد لنصوصه الحركيّة بحدود العصبيّات المذهبيّة على أنواعها.

في المحصّلة، يمكن الاستنتاج أنّه بدل أن يكون القرآن هو الذي يرسم إطار الحركة والمذهب والاتجاه، ويصوّب الأهداف والرؤى والغايات، أصبحت الحركات والمذاهب، بعناوينها المختلفة، هي التي تقيّد حركة النصوص القرآنيّة الحركيّة، وتجعلها على مقاسها، مدّعية أنّها تمتلك الحقّ الحصريّ في فهمها، متعالية على أقرانها من الحركات والمذاهب، مكفّرة لها، تمارَس عليها عمليّات الإلغاء أو الاستبعاد أو التهميش، وتتبادل التهم فيما بينها، برمي المسؤوليّة فيما آل إليه واقعنا الإسلاميّ المتردّي بعضها على البعض الآخر.

إنّ العودة إلى القرآن قد تكون مدخلًا للخروج من هذا الواقع المأساويّ الذي تعيشه الأمّة الإسلاميّة اليوم. وهذا يفترض عودة إلى القرآن بعقول وقلوب منفتحة على الفهم غير العصبويّ والفئويّ والحزبيّ أيضًا، بل لا بدّ لكي تتحقّق هذه الغاية من إعادة القرآن حاكمًا على فهمنا وحركاتنا وواقعنا، وأن نتوسّع في التعامل مع اجتهادات كلّ هذه الأطياف، باعتبارها اجتهادات في القرآن تغني الفضاء الاسلاميّ، وليست حقائق ملزمة للآخر.

عندها قد نجد أنفسنا أمام غنىً قلّ نظيره في بيئات الأديان السماويّة والأرضيّة على اختلافها.

مكانة القرآن الكريم في حركة الثورة ونظام الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران

السيّد محمّد حسين رئيس زاده
المستشار الثقافي للمستشارية الثقافية الإيرانية في لبنان في العام ٢٠١٢م

يشير العنوان إلى ما هو بديهيّ عندما يكون مدار الكلام حول مكانة **القرآن الكريم** في ثورة الشعب الإيرانيّ، وفي تأسيس الجمهوريّة على صراط آياته العظيمة. غير أنّ إعادة تفعيل النقاش بصدد هذه البديهة يبدو ضروريًّا لندرك الأثر العميق الذي يؤدّيه الالتزام بالوحي الإلهيّ في حركة التاريخ، وفي بناء الاجتماع الإنسانيّ، وصولًا إلى الحضارة الفاضلة.

وليس ثمّة أدنى ريب، بأنّ القيادة المسدّدة حين أطلقت النهضة الإسلاميّة المعاصرة في أواخر القرن العشرين المنصرم، كانت على يقين بأنّ نهضةً عظمى، كهذه، لن تنال فلاحها، واقتدارها، وتأييدها الإلهيّ، إلّا من خلال التمسّك بكتاب الله، والسنّة المقدّسة، والعترة الطاهرة من بيت النبوّة. وبهذه الدالّة، لن يكون غريبًا أن نرى أنّ الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة فعلًا قرآنيًّا محمّديًّا بامتياز كبير.

ولذا، فإنّ الحديث عن دور **القرآن الكريم** في الثورة الإسلاميّة ومكانته فيها يتوقّف مسبقًا على قبول أصلين موضوعيّين، وهما:

١. إنّ **القرآن الكريم** الذي هو الوحي الإلهيّ الذي نزل على قلب رسول الله، صلّى الله عليه وآله، هو كتاب هداية يحوي المعارف الأساسيّة التي تحتاجها البشريّة للوصول إلى الكمال والسعادة، وفي مقدّمها الأمور السياسيّة والاجتماعيّة.
٢. القول بضرورة الإيمان بديمومة حضور **القرآن** في الزمن، لكي تنجز القوانين والأوامر والنواهي الواردة فيه جميعًا إلى يوم القيامة، وهذه القوانين ليست خاصّة بعصر النزول أو عصر حضور المعصوم، صلّى الله عليه وآله.

ومؤدّى هذين الأصلين هو على خلاف ما تذهب إليه العلمانيّة واللائكيّة، والقول بمزج الدين بالسياسة؛ وهذا ما نعتقد به في الثورة الإسلاميّة. وفي هذا المجال، قام علماء كثر بالبحث في صحّة هذين الأصلين، ودوّنوا أسفارًا ضخمة حولهما؛ ونحن هنا لن ندخل في البحث عنهما توفيرًا للوقت.

لقد حضر القرآن الكريم، في مجمل معارف الثورة الإسلاميّة منذ تكوينها وحتّى انتصارها واستمرارها. ومن هنا، يُنظر إلى قيام الثورة الإسلاميّة على أساس ثورة العودة والرجوع إلى القرآن الكريم. ذاك أنّها تتغذّى بأصولها من تعاليم القرآن الكريم، ويسير منهجها نحو تطبيق تعاليمه القيّمة في المجالات السياسيّة والاجتماعيّة كلّها؛ لأنّ العودة إلى القرآن الكريم تخلق في نفوس المسلمين حافزًا ودافعًا لمحاربة الاستعمار، والظلم، والاستبداد، لنيل العزّة، والكرامة، والفخر، والرفعة؛ والأهمّ من ذلك كلّه، التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى.

وامتلأت ثقافة الثورة، أيضًا، بمكانته العالية، وأتاحت له دورًا أساس في التشريع والقيام بنشره وحفظه. فيمكن أن نقول، ثمّة تأثيرًا وتأثّرًا متبادلَين بين الثورة والقرآن الكريم؛ فلولا القرآن الكريم لما حدثت هذه الثورة، ولولا الثورة لما انتشر القرآن وقيمه في إيران وخارجها على النحو الذي انتشر فيه حاليًّا.

وسوف ندرس الموضوع في محورين:

المحور الأوّل، وهو دور القرآن في تأسيس الثورة ونظام الإسلام السياسيّ في إيران في مراحلها جميعًا، ابتداءً من التكوين والانتصار إلى الاستمرار.

لقد كان دور القرآن حاسمًا في تشكيل وعي القيادة والشعب ضدّ الطاغوت، ودفعهم إلى القيام بالثورة والصمود ضدّ جبروت السلطة الملكيّة الاستبداديّة. وكثيرة هي الآيات التي تدعو الناس إلى المواجهة ضدّ الجبابرة والطغاة. وقد تأثّر الشعب والقادة بها، كما استفادت القيادة من هذه الآيات في توعية الناس وحشد قواها وقدراتها.

وهنا نشير إلى بعضها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]،

---

(1) سورة الرعد، الآية ١١.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[٢]، ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[٣]، ﴿ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ﴾[٤]، ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[٥]، ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾[٦]، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٧]. والطاغوت هو الذي خرج عن الحدود الإلهيّة، وطغى على ولاية الله، وأنكر ولايته وولاية وليّ الله، فهو في الحقيقة ينكر ربوبيّة الله، ووجوب طاعته، بل يدعو الآخرين إلى طاعة نفسه.

ومنها رؤية القرآن الكريم إلى الاستبداد والديكتاتوريّة، فقد كان واضحًا أنّ الألفاظ الواردة في الآيات المباركة مثل: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾، و﴿ جَبَّار ﴾، و﴿ رجم ﴾، و﴿ طَغَى ﴾، و﴿ عَالَ ﴾، و﴿ عَنِيد ﴾، و﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾، و﴿ يَفْرُطَ ﴾، و﴿ اسْتِكْبَار ﴾، إنّما تشير إلى ديكتاتوريّة الأشخاص. ولا يعترف القرآن الكريم بالاستبداد والحكومات الديكتاتوريّة أيًا كان شكل نظامها السياسيّ. ويعتبرها، بالتالي، غير شرعيّة وغير صالحة للطاعة، بل يجب على المؤمنين الثورة عليها وإسقاطها بوصفها موانع أساسيّة تحول دون انفتاح طريق هداية الناس، ووصولهم إلى الكمال والسعادة الحقيقيّة. أمّا الطاغوت، والاستبداد، والحكومات الديكتاتوريّة، فهي التي تخرج الناس من النور إلى الظلمات. ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٨]. ومن ابتُلي بالظلمة لا يقدر على تشخيص الحقّ عن الباطل وتمييزه.

---

(٢) سورة هود، الآية ١٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٧٨.

(٤) سورة الحج، الآية ٣٩.

(٥) سورة الممتحنة، الآية ١.

(٦) سورة النساء، الآية ٦٠.

(٧) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٨) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

وقد سرد القرآن القصص حول الجبابرة والطغاة الذين واجههم الأنبياء، ولعلّ أبرزها قصّة فرعون، ونضال موسى ضدّه. إذ إنّ فرعون في القصّ القرآنيّ هو رمز الطغيان والديكتاتوريّة في تاريخ البشريّة، فإنّه مع الوعد والوعيد والتهديد بالقتل والسجن ونهب الأموال، جعل قومه عبادًا له، وأخرجهم من النور إلى طريق الضلال. وقد سرد القرآن كيفيّة نضال موسى ضدّه وانتصاره عليه في النهاية.

وسنجد في القرآن، وفي باب الغاية من بعثة الأنبياء، آيات تحثّ الناس على العمل بالقسط، وتطبيق العدالة الاجتماعيّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾(٩). ومن البديهيّ أنّ قيام الناس بالقسط وتطبيق العدالة الاجتماعيّة لا يتمّ إلّا من خلال مواجهة المستكبرين والطغاة، الذين لا يريدون القسط والعدالة لأنّهما يتعارضان مع مصالحهم الشخصيّة والحزبيّة، وإلى غير ذلك.

ومن جهة أخرى، حثّ القرآن الكريم المؤمنين على التشاور في أمورهم، ومنها ما يتعلّق ببناء الدولة وإدارة البلاد، ﴿شَاوِرْهُمْ﴾(١٠)، ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾(١١). ومن ناحية ثالثة، منع المؤمنين من أيّ تبعيّة ومذلّة لغير الله، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾(١٢)، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ﴾(١٣). ومن جهة رابعة، نفي ولاية أحد على الآخرين وتقدّمه إلّا بالتقوى، والعلم، والإيمان، والجهاد، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١٤).

ومن ناحية خامسة، بيّن لنا القرآن أنّ الصراع بين الحقّ والباطل هو أمر حتميّ، ومستمرّ في التاريخ إلى يوم القيامة، وذلك ما نجده بوضوح

---

(٩) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

(١٠) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.

(١١) سورة **الشورى**، الآية ٣٨.

(١٢) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

(١٣) سورة **النساء**، الآية ١٤١.

(١٤) سورة **الحجرات**، الآية ١٣.

في قصص مواجهة الأنبياء مع الطغاة والجبابرة، ومنها على سبيل المثال، مواجهة إبراهيم مع نمرود، وموسى مع فرعون، وداوود مع جالوت. ومن ناحية سادسة، فرض على المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمراحلها جميعًا، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[١٥].

شكّلت هذه القواعد القرآنيّة على الجملة، بالفعل، خارطة الهداية للتجربة الإسلاميّة في إيران على مدى أكثر من ثلاثة وثلاثين سنة من عمر الثورة والجمهوريّة الإسلاميّة. ولعلّ القدرة على الصمود في وجه الحروب ومراحل الحصار من جانب طواغيت العصر وقوى الاستكبار، لهي دليل على الحضور القرآنيّ في عقل القيادة المسدّدة بالهداية الإلهيّة.

إنّ تعيين مدى وميزان الاعتماد على القرآن الكريم وتدبُّر آياته، وجعلها محورًا أساس في نظريّة الثورة الإسلاميّة، قائم على أساس إدراكها من جانب القيادة الدينيّة التاريخيّة التي أدّت دورًا أساس في انتصار الثورة، أمثال الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، والشهيد مطهّري، قدّس سرّه. لقد كان للإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، اهتمامًا خاصًّا بالقرآن الكريم، حيث كان يقرأ القرآن سبع مرّات في اليوم الواحد. بحيث استفاد من كلّ فرصة تسنح له قراءة القرآن الكريم، فمثلًا نجده يقرأه في الفترة الزمنيّة التي تسبق تحضير الطعام، والتي غالبًا ما تنقضي من دون أداء عمل معيّن، وكذلك، من بعد فترة صلاة الليل وحتّى آذان الصبح.

يقول أحد المقرّبين من الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه: تضرّرت عين الإمام الخمينيّ رضي الله عنه في النجف الأشرف، وبعد مراجعته طبيب العيون، طلب منه الطبيب الاستراحة، وعدم القراءة لأيّام عدّة، تبسّم الإمام حينها، وقال لطبيبه: إنّ عيوني هي من أجل القرآن، فما فائدتهما من دونه؟ لذلك أطلب منك أيّها الطبيب أن تعمل شيئًا يجعلني قادرًا على قراءة القرآن.

---

(١٥) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

في السياق عينه، سنرى كيف تعامل الإمام مع القرآن الكريم كموجّه حاسم لثقافة الأمّة في مواجهة قضاياها الكبرى. يقول في أحد نصوصه:

قد بعث الله سبحانه وتعالى هذا النداء الغيبيّ القرآنيّ إليكم؛ بعثه إلى أتباعه، وأتباع القرآن الكريم، من أجل المحافظة على استقلال البلاد الإسلاميّة ورفعة الأمّة الإسلاميّة. يجب عليكم أن تقرؤوا هذا النداء، وتعملوا به، لتستعيدوا استقلالكم وعظمتكم، ولتحظوا بالنصر والرفعة مجدّدًا، وإلّا فسوف تسيرون نحو الفناء، في طريق لا يمنحكم إلّا الذلّة والعار، وسوف تكونون فريسةً وعرضةً لجميع قوى العالَم[١٦].

وفي السياق نفسه، يقول السيّد القائد، حفظه الله:

يكمن دور القرآن الكريم في منح النفس الإنسانيّة نوعًا من الاعتلاء المادّيّ والمعنويّ، وهذا هو ما فعله القرآن الكريم خلال التاريخ. ويستطيع من له اطّلاع على الأحداث التاريخيّة أن يلمس هذه الحقيقة من خلال وقائعه، ونحن بدورنا نشاهد نماذج كثيرة في وقتنا الحاضر تؤكّد على هذا الدور الأساسيّ للقرآن الكريم. من هذه النماذج، هي، أنتم أيّها الشعب الإيرانيّ العزيز، لا تظنّوا بأنّ الشعب الإيرانيّ، في ظلّ الحكومات الطاغوتيّة السابقة كالبهلويّة والقاجاريّة، أو ما سبقها من الحكومات الأخرى، كان يتمتّع بمكانة معتبرة دوليًّا. لم يكن للشعب الإيرانيّ أيّ نوع من الاعتبارات الدوليّة. إنّ مواهب الشعب الإيرانيّ وإبداعاته كانت منسيّة كالكنز المدفون في الأراضي والخرابات المتروكة، قد تظهر بالصدفة يومًا ما، وقد لا تظهر. أمّا اليوم فأنتم تلاحظون هذا الرعيل من الشباب المبدع الفعّال، الذي يمضي قدمًا نحو تطوّر بلاده وتقدّمها، قد حقّق نجاحات باهرة في مختلف المجالات، أغدقت على البلاد عزةً وكرامةً ورفعةً. إذًا، فالحكومات الطاغية هي من قمعت نجاحات الشباب وإبداعاتهم في ذلك الوقت[١٧].

لقد وصف قائد الثورة الإسلاميّة القرآن الكريم بالعنصر الذي يلبّي

---

(١٦) الإمام الخميني، **كشف الأسرار**، الصفحتان ٤٢٣ و ٤٢٤.

(١٧) للمزيد انظر: كلمة الإمام الخامنئي، حفظه الله، في اليوم الأوّل من شهر رمضان المبارك في ٨-٢-٢٠١١.

حاجات البشريّة ومتطلّباتها كافّةً، موضحًا أنّ القرآن يشكّل الدليل على طريق الشعوب من أجل نيلها سعادة الدارين الدنيا والآخرة. ولا يمكن معالجة حالات الضعف والتخلّف والمشاكل التي تعصف بالأمّة الإسلاميّة والتخلّص منها أو استبدالها، إلّا عبر التمسّك بنهج **القرآن الكريم** والعمل به. إنّ **القرآن الكريم** هو السبيل الوحيد للشموخ والتقدّم المادّيّ والمعنويّ للشعوب. ويشكّل الشعب الإيرانيّ نموذجًا واضحًا لهذه الحقيقة التاريخيّة. يُعتبر الشعب الإيرانيّ، وببركة هذه الخطوة، من أكثر الشعوب حيويّةً واقتدارًا في عالَم اليوم. وقد منّ الله، سبحانه وتعالى، على هذا الشعب بالعزّة، والبصيرة، والاقتدار، بفضل تمسّكه **بالقرآن الكريم**.

وكان الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، في مجمل مواقفه وكتاباته، متأسّيًا بنهج الأنبياء وسيرتهم. وكان يرى أنّ من واجب الجميع الإطاحة بالطاغوت، أي القوى السياسيّة المتحكّمة والمهيمنة على أرجاء الوطن جميعًا، حيث نهى الله سبحانه وتعالى في **القرآن الكريم** الخضوع والانصياع للطاغوت والقوى السياسيّة، وأمر سيّدنا موسى، عليه السلام، وأجبره على محاربة السلاطين ومقارعتهم[١٨].

ولنا أن نشير، أيضًا، أنّ الإمام ينظر إلى **القرآن الكريم** ككتاب معرفة، يشمل المناهج الروحيّة والتربويّة للإنسان[١٩]. وعلى هذا الأساس، نجد أنّ الأمور الاجتماعيّة التي حثّ عليها **القرآن الكريم** بالنسبة إلى أموره العباديّة قد تتجاوز المئة آية مقابل آية واحدة[٢٠].

من هنا، يُطرح السؤال الآتي: هل بالإمكان أن لا نتصوّر أنّ غاية الآيات الواردة في **القرآن الكريم** حول قتال الكفّار، ومن أجل استقلال البلاد الإسلاميّة وحمايتها، هي بناء دولة العدالة الإلهيّة؟ إنّ أساس الحكم قائم على القوى التشريعيّة، والقضائيّة، والتنفيذيّة، وعلى ميزانيّة بيت المال.

---

(١٨) الإمام الخمينيّ، **ولاية الفقيه**، الصفحة ١٣٨.

(١٩) الإمام الخميني، **صحيفة النور**، الجزء ١٧، الصفحة ٢٥٢.

(٢٠) الإمام الخميني، **ولاية الفقيه**، مصدر سابق، الصفحة ١١.

وإنّ أساس السلطة وتوسيع نفوذها قائم على الجهاد، وأساس المحافظة على استقلال البلاد، وصدّ هجوم الأجنبيّ قائم على الدفاع. ووردت هذه الأمور والمسائل في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة[٢١].

ويبيّن قول الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، ذلك مستندًا إلى الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[٢٢]:

ليس من الضروريّ أن تكون هناك جماعات لنستطيع أن نعلن ثورتنا من خلالها، أو بالتعاون معها، يقع هذا الواجب على عاتق كلّ فرد منّا. وثار كثير من رجال الدين، وشهروا سيفهم لوحدهم ضدّ الطواغيت. وثار النبيّ إبراهيم، عليه السلام، لوحده وحطّم الأصنام، ولم ترعبه وحدته، وقد أمر الله تعالى النبيّ موسى، عليه السلام، بالثورة والانتفاضة لوحده[٢٣].

وكتب الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، مستندًا إلى الآية ١٣٩ من سورة آل عمران ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ من له ارتباط مع الله، سبحانه وتعالى، لا يهزم ولا يتراجع، لأنّ الهزيمة هي لمن كانت آماله وأهدافه الدنيا، ومن الذين أبهرتهم الدنيا بزخارفها وبهارجها. فمتى ما كانت الثورة لله ومن أجله، لا بدّ من أن يكون الدعم والسداد منه سبحانه وتعالى، فالرجوع إلى الله يبعث في نفس الإنسان طمأنينةً لا تعرف الهزيمة أو التراجع، ويخلق فيه شعورًا خاصًا، لأنّه يرتبط بقدرة أزليّة عظيمة، فمثل هذا الإنسان يتّجه نحو الذات الإلهيّة المقدّسة وإطاعتها، لأنّه يكون كقطرة ماء مدعومة ببحر غير متناهي الأبعاد، فنحن متى ما ارتبطنا بهذا البحر اللامتناهي، نتّصف بصفاته وميزاته. وتعني آية ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، أنّ يدك هي يد الله، لأنّك ارتبطت به، وأنت لا تمثّل شيئًا، كلّ ما هو موجود ومحقّق يمثّل القدرة الإلهيّة الحقّة[٢٤].

---

(٢١) الإمام الخميني، **كشف الأسرار**، مصدر سابق، الصفحة ٣٠٠.

(٢٢) سورة **سبأ**، الآية ٤٦.

(٢٣) الإمام الخميني، **صحيفة النور**، الجزء ٣، الصفحة ٢٠٢.

(٢٤) الإمام الخميني، **صحيفة النور**، الجزء ١، الصفحة ٢٠.

ويكتب الإمام رضي الله عنه أيضًا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

إنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو تنظيم أمور الناس وتحقيق الكرامة الإنسانيّة في ظلّ نظام اجتماعيّ عادل، ولا يمكن أن تتحقّق هذه الأمور إلّا بتأسيس حكومة إسلاميّة. لم يأمر الله سبحانه وتعالى الرسول، صلّى الله عليه وآله، بإبلاغ الناس بما جاء من الأحكام، بل أمره بتنفيذها والعمل بها، مثلًا أمره بأخذ الضرائب المتمثّلة بالخمس والزكاة والخراج وصرفها في مجال تحقيق مصالح المسلمين عامة، وكذلك إجراء الحدود الإلهيّة، والمحافظة على ثغور البلاد وحدودها، والحدّ من تبذير ضرائب الدولة الإسلاميّة وأموالها كذلك. لذلك يُقال إنّ (الفقهاء أمناء الرسل)، أي تقع كلّ الأمور المناطة بالأنبياء والرسل على عاتق عدول فقهاء المسلمين ويتحمّلون مسؤوليّتها، ويجب عليهم تنفيذها[٢٥].

يعتبر الإمام الخمينيّ، رضي الله عنه، شموخ البشريّة وثباتها مرهون بتنفيذ الأحكام والقوانين الإلهيّة. ولذا، من الضروريّ أن تكون هناك شروط معيّنة للسلطة والحكم، وهي تتعلّق بصورة مباشرة بطبيعة الحكومة الإسلاميّة، حيث نجد شروطًا عامّة كالعقل والتدبير، وهناك منها شرطان أساسيّان:

الأوّل: بما أنّ الحكومة الإسلاميّة هي حكومة القانون، فلا بدّ للحاكم من أن يكون ملمًّا بالقوانين الإسلاميّة، ويجب أن تتوفّر فيه الأفضليّة العلميّة.

الثاني: يجب أن يتّصف الحاكم بكمال الأخلاق والعقيدة، وأن يكون عادلًا غير ملوّث بالمعاصي، فمن يريد أن يطبّق حدود الله ويطبّق قانون الجزاء الإسلاميّ، كالتصدّي لبيت المال الذي يشمل واردات البلاد وصادراتها، ومن يعهد إليه الله سبحانه وتعالى إدارة شؤون عباده، يجب

---

(٢٥) الإمام الخميني، **ولاية الفقيه**، مصدر سابق، الصفحات ٧٧ إلى ٧٩.

أن لا يكون عاصيًا لأوامره تعالى، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢٦]، لأنّ الله تعالى لا يوكل مثل هذه الصلاحيّات إلى حاكم جائر ظالم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[٢٧].

كما يأمركم الله سبحانه وتعالى، اليوم، بأداء الأمانات إلى أهلها. ويقول سبحانه في ذيل الآية الكريمة كذلك: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. وهذا الخطاب موجّه إلى من زمام أمور البلاد بيده؛ أي مسؤولي البلاد عامّة، ولا تخصّ القضاة، لأنّ القاضي يقضي بين الطرفين، ولا يحكم. وعندما تكون المسائل الدينيّة المتمثّلة في الأمانة الإلهيّة، والتي يجب أن تعاد إلى أصحابها وأهلها، تكون الحكومة إحدى هذه الأمانات المشار إليها في هذه الآية الكريمة، وعلى هذا الأساس، يجب أن تكون أمور حكومة البلاد وإدارتها قائمةً على إقامة العدل.

نحن نعيش، اليوم، في زمن غيبة الإمام المهديّ، عجل الله فرجه، فإن لم يكن هناك تعيين إلهيّ للشخص الحاكم، فهناك خصائص وميّزات يجب أن تتوفّر في الذي يمثّل عصر غيبة المعصوم، عجّل الله فرجه، وهي خصائص أساسيّة موجودة منذ صدر الإسلام وحتّى يومنا هذا.

إنّ الخصائص والميّزات القياديّة هي عبارة عن الاتّصاف بالعدالة والعلم بالقانون، فإذا تولّى شخص معيّن إدارة حكومة البلاد تتوّفر فيه شروط الحاكم من العدالة والعلم، وكانت ولايته للناس مستندة على أساس ولاية الرسول، فعلى الجميع طاعته والانصياع لحكمه[٢٨].

---

(٢٦) سورة **البقرة**، الآية ١٢٤.

(٢٧) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(٢٨) الإمام الخمينيّ، **ولاية الفقيه**، مصدر سابق، الصفحات ٥١ - ٥٣.

المحور الثاني: هو كيفيّة تعامل الثورة الإسلاميّة في إيران مع القرآن بعد الانتصار

لقد جعلت الثورة القرآن ومفاهيمه السياسيّة محورًا أساسيًّا للتخطيط، والتشريع، والتنفيذ في النظام الإيرانيّ، إن على مستوى السياسة الداخليّة أو الخارجيّة. ويظهر هذا الاهتمام، جليًّا، في الدستور الإيرانيّ الذي انبثق من المبادئ القرآنيّة. فقد اتّخذت الثورة الإسلاميّة موقعيّتها في الدستور كثورة ثقافيّة ودينيّة قرآنيّة من قبل أن تكون ثورة سياسيّة واقتصاديّة. وهو ما تفصح عنه المادّة الأولى من الدستور التي تنصّ على أنّ:

> نظام الحكم في إيران هو الجمهوريّة الإسلاميّة التي صوّت لها الشعب الإيرانيّ بالإيجاب بأكثريّة ٩٨٪ ممّن كان لهم حقّ التصويت، من خلال الاستفتاء العامّ الذي جرى في العاشر والحادي عشر من شهر (فروردين) سنة ألف وثلاثمئة وثمان وخمسين (١٣٥٨) هجريّة شمسيّة، الموافق للأوّل والثاني من جمادى الأولى سنة ألف وثلاثمئة وتسع وتسعين (١٣٩٩) هجريّة قمريّة.

وأنتم تعلمون كيف شارك الشعب في هذا الاستفتاء العامّ انطلاقًا من إيمانه الأصيل بحكومة القرآن العادلة الحقّة.

واتّخذ الدستور بعض الآيات القرآنيّة مصدرًا مباشرًا لبعض بنود الدستور، من باب المثال، المواد السابعة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشرة والحادية والخمسون بعد المئة، استند الحكم فيها إلى الآيات القرآنيّة:

المادّة السابعة: طبقًا لما ورد في القرآن الكريم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٢٩]، و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٣٠]، تعتبر مجالس الشورى من مصادر اتّخاذ القرار وإدارة شؤون البلاد، وتشمل هذه المجالس: مجلس الشورى الإسلاميّ، ومجالس شورى المحافظة، والقضاء، والبلدة،

---

(٢٩) سورة الشورى، الآية ٣٨.

(٣٠) سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

والقصبة، والناحية، والقرية، وأمثالها.

المادّة الثامنة: في جمهوريّة إيران الإسلاميّة، تعتبر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤوليّة جماعيّة ومتبادلة بين الناس، فيتحمّلها الناس بالنسبة لبعضهم بعضًا، وتتحمّلها الحكومة بالنسبة للناس، والناس بالنسبة للحكومة. والقانون، يعيّن شروط ذلك وحدوده وكيفيّته؛ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٣١].

المادّة الحادية عشرة: بحكم الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٣٢]، يعتبر المسلمون أمّة واحدة، وعلى حكومة جمهوريّة إيران الإسلاميّة إقامة كلّ سياستها العامّة على أساس تضامن الشعوب الإسلاميّة ووحدتها، وأن تواصل سعيها من أجل تحقيق الوحدة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في العالم الإسلاميّ.

المادّة الرابعة عشرة: بحكم الآية الكريمة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣٣]، على حكومة جمهوريّة إيران الإسلاميّة، وعلى المسلمين أن يعاملوا الأشخاص غير المسلمين بالأخلاق الحسنة، والقسط والعدل الإسلاميّ، وأن يراعوا حقوقهم الإنسانيّة. وتسري هذه المادّة على الذين لا يتآمرون، ولا يقومون بأيّ عمل ضدّ الإسلام أو ضدّ جمهوريّة إيران الإسلاميّة.

وفي البند الرابع، جعل الموازين الإسلاميّة، المبتنية على الكتاب والسنة، أساسًا للقوانين والقرارات المدنيّة، والجزائيّة، والماليّة، والاقتصاديّة، والإداريّة، والثقافيّة جميعًا، وغيرها.

---

(٣١) سورة **التوبة**، الآية ٥١.

(٣٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٩٢.

(٣٣) سورة **الممتحنة**، الآية ٨.

المادّة الرابعة: يجب أن تكون الموازين الإسلاميّة أساس القوانين والقرارات المدنيّة، والجزائيّة، والماليّة، والاقتصاديّة، والإداريّة، والثقافيّة، والعسكريّة، والسياسيّة وغيرها. وتعدّ هذه المادّة نافذةً على جميع مواد الدستور والقوانين والقرارات الأخرى إطلاقًا وعمومًا. ويتولّى الفقهاء في مجلس صيانة الدستور تشخيص ذلك.

وقد جعل مجلس الصيانة للدستور ضمانًا لتطبيق هذا الأصل، وجعل هذه المادّة حاكمةً على جميع المواد في الدستور،كما أنّه أخرج هذا الأصل عن إمكان تعديله في المستقبل.

الفصل الرابع عشر: إعادة النظر في الدستور

المادّة السابعة والسبعون بعد المئة: تتمّ إعادة النظر في دستور جمهوريّة إيران الإسلاميّة في الحالات الضروريّة على النحو الآتي:

يقوم القائد بعد التشاور مع مجمع تشخيص مصلحة النظام، وفق حكم موجّه إلى رئيس الجمهوريّة، باقتراح المواد التي يلزم إعادة النظر فيها، أو تكميل الدستور بها، والدعوة إلى تشكيل مجلس إعادة النظر في الدستور على النحو الآتي:

١. أعضاء مجلس صيانة الدستور.

٢. رؤساء السلطات الثلاثة.

٣. الأعضاء الدائمون في مجمع تشخيص مصلحة النظام.

٤. خمسة أشخاص من أعضاء مجلس خبراء القيادة.

٥. عشرة أشخاص يعيّنهم القائد.

٦. ثلاثة أعضاء من مجلس الوزراء.

٧. ثلاثة أشخاص من السلطة القضائيّة.

٨. عشرة نوّاب من مجلس الشورى الإسلاميّ.

٩. ثلاثة أشخاص من الجامعيّين.

ويحدّد القانون كيفيّة العمل وأسلوب الانتخاب وشروطه. ويجب أن

تُطرح قرارات هذا المجلس للاستفتاء العام، بعد أن يتمّ تأييدها والمصادقة عليها من قبل القائد، وتحصل على موافقة الأكثريّة المطلقة للمشاركين في الاستفتاء العام. ولا تلزم رعاية ذيل المادّة التاسعة والخمسين في هذا الاستفتاء.

أمّا مضامين المواد المتعلّقة بكون النظام إسلاميًا، وقيام القوانين والمقرّرات كلّها على أساس الموازين الإسلاميّة والأسس الإيمانيّة، وأهداف جمهوريّة إيران الإسلاميّة، وكون الحكم جمهوريًا، وولاية الأمر، وإمامة الأمّة، وإدارة أمور البلاد، كذلك، بالاعتماد على الآراء العامّة، والدين، ومذهب إيران الرسميّ، فهي من الأمور التي لا تقبل التغيير.

إضافةً إلى ذلك، شكّل حضور القرآن محورًا رئيسيًا في موقع رئاسة الجمهوريّة ونوّاب مجلس الشورى في تنظيم القيام بواجباتهم و مهمّاتهم.

المادّة السابعة والستون: على النوّاب أن يؤدّوا اليمين التالية في أوّل اجتماع للمجلس، ويوقّعوا على ورقة القسم:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقسم أمام القرآن الكريم بالله القادر المتعال، وألتزم بشرفي أن أكون مدافعًا عن حريم الإسلام، حاميًا لمكاسب ثورة شعب إيران الإسلاميّة، ولأسس الجمهوريّة الإسلاميّة، وأن أحفظ الأمانة التي أودعها الشعب لديّ باعتباري أمينًا، وعادلًا، وأن أراعي الأمانة والتقوى في تأدية مسؤوليّات النيابة، وأن أكون، دائمًا، ملتزمًا باستقلال الوطن ورفعته، وحفظ حقوق الشعب، وخدمة الناس، وأن أدافع عن الدستور، وأن أستهدف في تصريحاتي، وكتاباتي، وإبداء وجهات نظري، ضمان استقلال البلاد وحرّيّة الناس، وتأمين مصالحهم.

ويؤدّي نوّاب الأقليّات الدينيّة اليمين مع ذكر كتابهم السماويّ، والأولى على النوّاب الغائبين عن الجلسة أداء اليمين في أوّل جلسة يحضرونها.

المادّة الحادية والعشرون بعد المئة: يؤدّي رئيس الجمهوريّة اليمين الآتية، وتوقّع على ورقة القسم، في مجلس الشورى الإسلاميّ في جلسة

يحضرها رئيس السلطة القضائيّة، وأعضاء مجلس صيانة الدستور:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّني باعتباري رئيسًا للجمهوريّة، أقسم بالله القادر المتعال في حضرة **القرآن الكريم**، وأمام الشعب الإيراني أن أكون حاميًا للمذهب الرسميّ، ولنظام الجمهوريّة الإسلاميّة، وللدستور، وأن استخدم مواهبي وإمكانيّاتي كافّة في سبيل أداء المسؤوليّات التي في عهدتي، وأن أجعل نفسي وقفًا على خدمة الشعب، ورفعة البلاد، ونشر الدّين والأخلاق، ومساندة الحقّ، وبسط العدالة، وأن احترز عن أيّ شكل من أشكال الديكتاتوريّة، وأن أدافع عن حرّيّة الأشخاص وحُرُماتهم، والحقوق التي ضمنها الدستور للشعب، و لا أقصّر في بذل أيّ جهد في سبيل حراسة الحدود، والاستقلال السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ للبلاد، وأن أعمل كالأمين المضحّي على صيانة السلطة التي أودعها الشعب عندي وديعةً مقدّسةً مستعينًا بالله، ومتّبعًا نبيّ الإسلام والأئمّة الأطهار عليهم السلام، وأن أسلّمها لمن ينتخبه الشعب من بعدي.

كما يتمثّل دور النظام الإسلاميّ في إيران بنشر الثقافة القرآنيّة، وتربية القرّاء، والحفّاظ، والمفسّرين، وطباعة **القرآن** والكتب المرتبطة به كذلك، وهو دور لافت ومهمّ. وبالتالي يمكن أن نقول: إنّ إيران حاليًّا هي الدولة الأولى في العالم الإسلاميّ التي اهتمّت **بالقرآن** في المجالات العمليّة والتطبيقيّة وغيرها. وقد أسّست مراكز متعدّدة مهمّتها نشر **القرآن** ومفاهيمه. وثمّة شبكةً إذاعيةً تلفزيونيّةً خاصّة تبثّ البرامج القرآنيّة من القراءة والتفسير وإلى غير ذلك؛ كما تقيم الحكومة سنويًّا مهرجانات ومسابقات دوليّة في الحفظ، والقراءة، والتفسير، ويشارك فيها [متسابقون] من الدول الإسلاميّة كافّة.

لقد أتاح النظام الفرصة لكلّ من يريد أن يرتقي في المجالات القرآنيّة، وفي هذا الإطار منح عناية خاصّة للحفّاظ والقرّاء، أهمّها الإعفاء من الخدمة العسكريّة، وانتسابهم للجامعات من دون امتحان دخول، وإلى غير

ذلك.

والجدير بالذكر، إنّ الأنشطة القرآنيّة في إيران لا تختصّ بالرجال، بل ثمّة حضور فاعل للمرأة في الميادين القرآنيّة كافّة؛ كما تشمل هذه الأنشطة الساحات ومنها: الفنّ، والفنّ السابع. فقد أنتجت أفلام كثيرة حول المواضيع القرآنيّة، منها مسلسل النبيّ يوسف، ومسلسل أصحاب الكهف، وإلى غير ذلك.

ولا بدّ من الإشارة، أيضًا، إلى تأسيس وكالة الأنباء القرآنيّة (ايكنا) التي تعتبر مبادرة مهمّة لنشر الفعاليّات القرآنيّة داخل إيران وخارجها. وتعمل هذه الوكالة في أكثر من عشرة لغات، منها العربيّة والإنكليزيّة.

وفي إيران اليوم آلاف الحفّاظ. وثمّة برامج واستراتيجيّات تشمل أكثر من عشرة ملايين حافظ، تنفيذًا لما طلبه السيّد القائد من المسؤولين المعنيّين.

سلسلة أدبيّات النهوض

العنوان	المؤلف
١- العبادة والعبوديّة في الرؤيا والسلوك عند الإمام الخميني	حسن يحيى بدران
٢- عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة	عليّ مهدي زيتون
٣- الشعائر الحسينيّة من المظلوميّة إلى النهوض	شفيق جرادي
٤- على ضفاف الفرات	إبراهيم أمين السيّد
٥- مجتمع المقاومة	نعيم قاسم
٦- الشيخ عبد الحميد بن باديس	إلياس جوادي
٧- الثورة الإسلاميّة في إيران: ظروف النشأة والقيم القياديّة	منوشهر محمّدي
٨- الخطاب عند السيّد حسن نصر الله	أحمد ماجد
٩- الحداثة والمقاومة	طه عبد الرحمن
١٠- الإمام ونهج الاقتدار	شفيق جرادي
١١- قيم النهوض: الحرّيّة - العدالة - الاستقلال الوطنيّ	مرتضى مطهّري
١٢- النهوض الحضاريّ في فكر الإمام موسى الصدر	غسّان فوزي طه